سواقي الوجع

مقالات كوميدية سوداء

سعيد أبو نعسة

كتوباتي
kotobati

سواقي الوجع

مقالات كوميدية سوداء.

بقلم:

سعيد أبو نعسة

الكتاب: سواقي الوجع.

النوع: مقالات كوميدية سوداء.

تأليف: سعيد أبو نعسة.

لوحة الغلاف: عزيز بومهدي.

تصميم الغلاف: مكتبة كتوباتي.

التنسيق الداخلي: مكتبة كُتوباتي.

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي.

www.kotobati.com

kotobati@gmail.com

إصدار 2022.

جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

كتوباتي تخلي كل مسؤولياتها من أية سرقة أديبة في هذا العمل.

الفهرس:

المقدمة..... 6
الشعب العنيف..... 9
الكاتب المنتظَر. 11
الجاهلية المعاصرة. 13
بين مناظرتين..... 16
حرفٌ فقط..... 18
التشبّـه بالكفار..... 21
قصة مكرورة. 24
الدين الهشّ. 26
الشكر واجب. 28
دعدوش..... 29
وخزة..... 31
لا داعي للهلع. 32
أسلمة الدول الأوروبية 33
رفض الجديد..... 36
عيد الحب والسَبّ 39
(عليه من الله ما يستحق) 41
نحن فقط. 45
بين الضحك والبكاء. 48
الفوضى..... 50
الخطأ المتنامي: 53
(أمة اقرأ لا تقرأ)..... 56
الزمن الجميل. 57
الطعام ← العقلية ← الإرهاب..... 58
السكوت من ذهب. 61
أنا وبس والباقي خس. 63
الشورى..... 65
التطنيش 67
وماذا إذا. 70
كرتون..... 72
تجارب. 74
رأيي وفقط. 75

هل سينتهي الإسلام عام 2047 ؟..... 77
أنا حسود..... 81
الدنيا بين الممر والمَقر..... 83
جلد الذات 84
الدين اليُسر..... 86
الكاتب المبتدئ 88
خيرٌ باطنه شر..... 90
عزيزي السيد المسيح: 92
عيد ميلاد الأنبياء..... 93
كرَم مع وقف التنفيذ 94
هذا ما حدث: 96
فَشّة خُلق 98
ذئاب..... 100
ناقدٌ فقط..... 102
قفزٌ فوق الزمن..... 104
كيف تصبح إيجابيا ؟..... 105
ما معنى مجاعة ؟ 107
مهلا رمضان 109
المعلم المجهول..... 111
عزيزي المستعمر: 112
الكيل بمكيالين..... 115
لكل مقام مقال..... 117
أبو العُرّيف 119
لا أثق كثيرا بشاعر سمين..... 121
جعلوني شيطانا..... 124
المستوطن مدني أم عسكري؟ 126
صحن فتّوش..... 128
الإبداع بين الفقر والغنى..... 131
نعمة الغلاء..... 133
مارك في قفص الاتهام..... 135
الخَسة في رمضان 137
(بيسو) لا ترحل..... 139
كيف تُصبح زعيما؟ 143
تقمّص..... 147
الله مع من؟ 149

تعدُّد الآلهة..... 152
جعلوني.... 154
التدين الكرنفالي..... 157
الربيع الباكي. 159
ما هي وظيفة الدين ؟..... 161
نرفزات رمضان 166
مع وقف التنفيذ 167
حبة فرح..... 169
الفضول المتديّن أو (التديّن الفضولي)..... 170
ما الذي يحدث للبشر؟ 174
جمع سواك 176
التفخيم والتعميم. 178
المشاهير والقداسة..... 181
مغالطات وحجج واهية..... 185
قانون ازدراء الإلحاد..... 186
لماذا الإسلام بالذات؟..... 189
كذاب (جنتل)..... 193

المقدمة.

(كان ياما كان في قديم الزمان)

جملة مكرورة أَلِفناها منذ نعومة أظافرنا ـ وكأن أظافرنا كانت ناعمة في الصغر، عليم الله كانت أشبه بالمخالب.

يروح الراوي يستهل بها الحديث وهو يسرد على مسامعنا حكايات قديمة، ونوادر مؤثرة، على اعتبار أننا خرجنا من عباءة الماضي التليد المجيد الفريد، وصرنا شعوبا متحضرة.

الأولى أن يُغير هذه الديباجة، وأن يقول مثلا(صار ياما صار) ثم يشرع في سرد ما يحلو له من قائع حياتنا التي صارت كلها نوادر نادرة، حياة لا يشتهيها أحد، ولا يطمح إليها طامح، أحياء أموات في آن معا.

أوطان لا تشبه الأوطان، ودول أطلقنا عليها هذا الوصف مجازا، إن هي إلا أرض مسوّرة بجغرافيا دكتاتورية، معترفٍ بها دوليا، تضم شعوبا وقبائل، ليتعاركوا بسبب وبلا سبب. مرة يتنازعون على الحدود، وأخرى حول ثارات داحسية غبراء عفا عليها زمن التطور.

نظام ملكي يعادي جمهوريا، وحزب شمولي هنا، يعادي حزبا شموليا هناك وعَلَم الحزبين واحد. ومرارا يعلنون الجهاد المقدس ضد بعضهم داخل الدولة الواحدة.

سواقي وجع لا تنضب من نعرات إقليمية، قومية،

دينية، فكرية، ونزاعات اقتصادية، فإذا السواقي تتجمع فتصبح سيلا جارفا يُغرق العالم العربي، الذي لم يكن يوما يشبه العالم، وكيف يصح أن نطلق وصف عالم على مزق متناحرة متكارهة متحاسدة لا يربطها الحب والتعاون والإخاء؟

أمة لم تعد أمة، بعد أن تمترست كل دولة خلف حدودها و(كوّشت) على ما تملكه من ثروات، وقررت ارتباطها بدول الخارج بما يخدم مصالحها، ضاربة مصالح الدول اليعربية الشقيقة عرض الحائط، واعتمدت جميعها المذاهب والحركات الدينية المتكافرة عوضا عن روابط اللغة والتاريخ والعادات المشتركة.

هذا الكتاب مقالات كوميدية سوداء، تجعلك تبتسم وأنت تذرف دمعة أسى، كيف لا، وقد صار الواقع مبكيا مضحكا معا.

سواقي الوجع ليس جلدا للذات بقدر ما هو مهماز لمن أراد أن يستفيق، قبل أن نخرج من الجغرافيا، كما خرجنا من التاريخ. كي نصحو من غفلتنا قبل أن يفرغ الوطن الكبير من شبابه. وقبل أن تحرق المذهبية الضيقة والأنا العليا الأخضر واليابس، إن بقي أخضر لدينا.

مهماز ناعم يدعو إلى جلسة حوار مع الذات العربية كي

تستدرك شمسها قبل الأفول، وقبل زحف المغول، لا من الشرق فقط، بل من كل الجهات.

مقالات قصيرة لا تشخص الداء وتمضي نحو الاسترخاء والخدر اللذيذ، بل تصف الدواء النافع، المخزون على الرفوف، نراه ونعرفه ولكننا نتقاعس عن تناوله،

محتجين بطغيان الأنظمة القهرية الحاكمة، المُنصَّبة من قوى الاستكبار والاستعمار والصهيونية، ونرفض أن نعترف بالسبب الجوهري الكامن في ذواتنا، نُقر به ولا نعمل على تلافيه.

سواقي الوجع تنبع من المَصدرَين معا، وتصبّ في النهر الكبير الذي يتمدد ويتسع كي يصل الماء بالماء من المحيط إلى الخليج.

سواقي الوجع تنبع من زمن مقداره كمشة ألوف من السنين، وقد يرفدها الزمن الآتي إذا استمر الشخير.

هي دعوة كي نفيق ونعترف، ثم نشمّر عن ساعد العلم والعمل، التربية والبناء، التخطيط والتنفيذ ؟

هنا يبدأ الأمل، ويشع الفجر الأنور، وتبتسم الأجيال وتفخر: صرنا خير أمة أخرجت للناس.

الشعب العنيف

العنف يطبع حياتنا كلها:

والدك يصرخ في وجهك وأنت رضيع.

معلمة الروضة ترعبك بزعيقها وتدخل الصف منرفزة عاقدة الجبين وكأنها مكرهة على عملها.

تكبر ويكبر العنف معك في مراحل الدراسة جميعها، وأنت تجلس محنطا أمام معلم دكتاتور.

تهرب إلى المسجد يوم الجمعة طلبا للراحة النفسية فيخرق الشيخ طبلة أذنك وهو يتوعد أعداء الله، محمّلا إياك المسؤولية عن انحطاط الدول الاسلامية، وعدم تطبيق الإسلام ويروح يطالبك بالجهاد، وبأن يجد الكفار فيك غلظة، بينما يتقاعس هو مكتفيا بالجهاد الناعم، جهادِ الكلمة.

فلن نعجب إذا صرختَ في وجه ابنك وزوجتك وأمك وأبيك وعشيرتك التي تؤويك.

حياتنا عنف بعنف.

تتعطل سيارتك فتدق (المارش) بمطرقة فيعمل وأنت تتنهد فرحا.

يحرن الريموت كونترول فتضرب ساقك به فيستجيب.

يزعق المنبه صباحا كي يوقظك فتدقه بقبضتك لا لأنك عنيف فقط بل لأنك تكره الصحو.

تخرج إلى الشارع فترى التاجر المشاجر وسائق التاكسي (القبضاي) الذي يحمل لك الهراوة الغليظة إن نبّهته بزمور سيارتك أو ناقشته بالأجرة.

تروح تتنزه في شارع تجاري مرموق متلألئ فتصدمك لافتات متحدية متنافسة (تحطيم أسعار /حرق أسعار /سحق أسعار).

تقول:" أنزوي في بيتي". فيأتيك العنف من حيث لا تحتسب، على هيئة نشرة أخبار أو فيلم آكشن أو أغنية شبابية حطمت الرقم القياسي في المبيعات (اعطيني على طواحيني).

فهل ما زلت تسأل متعجبا: من أين جاء هذا العنف كله؟!!.

إسأل روحك، وإلا فأعد قراءة المقال.

****

الكاتب المنتظر.

الساعة الآن الخامسة عصرا ولم أنشر شيئا بعد !

ما هذه المصيبة يا إلهي؟

الجماهير تنتظر على أحرّ من الجمر منذ الصباح، وأنا منشغل بتوافه الأمور.

مالي أنا ولتطور وباء الكورونا في العالم؟ لقد بذلت خبراتي العشبية للفتك بالوباء منذ البداية، وأديت قسطي للعلا، فما ذنبي إن لم يطبقوا نصائحي الزنجبيلية واليانسونية أو يلتهموا قشر الليمون؟ ومالي ومال تطورات الشرق الأوسط، فلتذهب السياسة إلى الجحيم، طالما لم يسمع الزعماء نصيحتي منذ البداية بأن الحل الوحيد لقضية فلسطين من الآن وحتى يوم القيامة هو دولة واحدة ذات قوميتين.

مجرم أنا بحق قرائي، أراهم ـ وأكاد أقسم ـ أنهم الآن يهزون أرجلهم دون انقطاع،ثم يقومون يتمشون داخل الغرف المغلقة، قبل أن يفتحوا الفيسبوك مرارا وتكرارا متلهفين لحروفي.

لا يهمهم ما سأكتب، تكفيهم رؤية الاسم حتى يبتسموا وينزرع التفاؤل في نفوسهم الكئيبة.

تشبّثهم بي يحملني مسؤولية أضخم من أزمات لبنان، ولسوف أُسأل يوم القيامة عن تأخري في نشر المقال.

ما الذي حشرني اللحظة في المطبخ، كي أسمّ بدن زوجتي بنصائحي المطبخية؟ ولماذا في رمضان بالذات تحلو لي الكتابة في المطبخ؟

هي تتهمني بأنني عصبي المزاج، وأنا أتهمها بأنها طويلة اللسان، فإذا ما أضفنا إلى الصفتين مشقة الصيام والحجر الصحي فلكم أن تتخيلوا النتيجة؟

اليوم سأتفاءل وسأخيب ظنها ووصفها لي بأنني ملك التشاؤم، وسأنزل عند رغبة صديق بسوم (ع العطال ع البطال) ينصحني دوما بالتفاؤل رغم أنف المصائب.

سأجلس في المطبخ وأكتب على وقع الطناجر والصحون، متنسما عبير الثوم والبصل والمرق المبهر.كل هذا سيتم بعد أن أضع بصمتي على صينية الكنافة كطباخ مكحكح عجوزي الخبرة.

سأكتب عن بسماتي المتتالية في وجه زوجتي المكشرة، وسأغمزها بين الفينة والأخرى كي تراقب الكنافة في الفرن. أراها تُعرِض عني متمتمة بشتائم أظنها مخففة، تلائم شهر الصوم، تُكسبها سيئة ولا تعرضها لغضب الباري.

وبما أن طقوس الكتابة التفاؤلية تقتضي النظر إلى المزهرية فكان لا بد أن أقوم لتعديل الزهور البنفسجية فيها، ويشاء عمى قلبي أن يجعلني أتعثر بلعبة حفيدي فتتحطم المزهرية واللعبة معا، وينفجر البكاء والصراخ وزمجرة المدام، التي ستنشغل كما توقعتم ـ بكنس الزجاج ومسح المكان على وقع رائحة كنافة كانت شقراء تسر الناظرين، فصارت إفريقية داكنة، ضاعت سدى، تماما كما ضاع صيام زوجتي وصيامي.

****

الجاهلية المعاصرة.

الجهل يورث الفقر، والفقر يورث المصائب كلها.

سيتبادر إلى الذهن مباشرة أن المقصود بالجهل ضد العلم، فغير المتعلم وغير المثقف نسميه جاهلا. هذا هو التعريف السائد عند غالبية البشر.

ولكن هذا لا يؤثر كثيرا على تطور المجتمع ونُموّه، وانتشار الأمن والسلام فيه، لأن الأُميّ يمكنه إتقان أية صنعة يجني منها طائل الأموال، ويجمع خبرة عملية يستقيها من تجارب المحيطين به، فيفيد المجتمع أكثر من المتعلم أحيانا، وهكذا سمعنا بشعراء يضاهون كبار شعراء الفصحى بشعرهم الرصين المعبر المملوء بالصور الشعرية، وشيوخ قبائل لا يفكون الخط، يحكمون بين المتخاصمين بيسر وسهولة لا يقدر عليها قاضٍ يحمل الشهادات العلى.

إذًا فالجهل ليس محصورا بعدم معرفة المعلومات، والحق والحقيقة والصواب، بل يشمل اجتزاء ذلك كله، أي الإحاطة بجزء من الحقيقة وإهمال الجزء الآخر أو باقي الأجزاء، ويشمل أيضا تطبيق ما هو عكس الصواب والحق فنحصل على نتائج كارثية.

الحاكم قد يحمل شهادات عليا، ويصدع رؤوس الناس بخطبه ومحاضراته، ولكنه يطبق الديمقراطية المزيفة، التي تجعله دكتاتورا حاكما مدى الحياة، يُطبّق العدالة بما يخدم أهواءه ومصلحة أتباعه، ومصلحة الذي نصّبه حاكما، ويسند كرسيّه كي لا يتخلّع.

ورجل الدين حامل الدكتوراه قد يصبح جاهلا حين لا تُنتج رسالة الدكتوراه التي يحملها علما جديدا، وخططا بديلة تجدد الخطاب الديني بما يلائم العصر، فيظل يدور وهو وأتباعه في دائرة مغلقة، تورثهم الدوار والإغماء، بينما الحياة تمضي في طريق مفتوح محاط بالزهور. وحين يُعرض عن قول الحق، ومواجهة السلطان الجائر، خوفا على رزق عياله، فيتحالف مع السلطة الظالمة، بقصد أو بدونه، ويلوي عنق الدين خدمة لها.

يصبح جاهلا بل منافقا حين يُطبق عكس ما تعلّم، فيعتكف في دار العبادة إماما وخطيبا ومدرسا لمعلومات يحفظها المصلون مسبقا عن ظهر قلب، يحثّ الناس على دفع الزكاة والصدقة، بينما هو لا يتصدق، وربما ينال جزءا منها دون وجه حق، ودون أن يكون محتاجا إليها.

ويكون جاهلا حين لا يحيط بجوهر الدين الذي يدعو إليه، أو يخفيه عن الناس، فيصرخ على المنبر، متغنيا بدين الرحمة والتسامح والمحبة بينما يُكفّر اتباع الديانات المخالفة ويحشرهم جميعا في جهنم، وينفرد مع الأتقياء من أتباع مذهبه المحدود في جنات النعيم.

وهذا ينطبق على القاضي المرتشي، والمحامي المدافع عن القتلة والمجرمين ورجال المافيا، وعلى المدرس الغشيم الذي أوكلت إليه مهمة التربية والتعليم، بينما هو أحوج ما يكون إليهما.

وكذلك جميع المهن والوظائف والاختصاصات، التي يتغنى أصحابها بعلم حصّلوه بشق الأنفس، ثم يروحون يطبقونه منقوصا أو معكوسا، فيما يمكن تسميته بالنفاق الشخصي والاجتماعي، الذي يدمر المؤسسات الحكومية والخاصة، ويخرّب النفوس وإن كانت النظرية جميلة النصوص.

ثم تسأل: لماذا انهارت الدول العربية وانتشر الإرهاب؟

****

بين مناظرتين

ما الذي يفهمه من الدين طالب أزهري لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ؟

يومها شددت الرحال مع أترابي إلى جامعة بيروت العربية، لحضور مناظرة قيّمة جدا عنوانها (الجهاد في الإسلام).

طرفا المناظرة، الدكتور صبحي الصالح، والشيخ طه الصابونجي من جهة، والمطرانان جورج خضر وغريغوار حداد من جهة أخرى (رحمهم الله جميعا).

عرض المطران خضر مداخلة مضمونها أن الإسلام انتشر بالسيف، فقامت الدنيا ولم تقعد من طرف الجمهور الغوغائي وكنا منهم، تصفير واستهجان كلامي ميزتُ منه بعض الشتائم، ما جعل المطران يهمّ بالمغادرة، لولا تدخّل منظمي اللقاء، وقسما لقد لمست الخوف في عينيه. وحين تحدث الدكتور صبحي الصالح تعالى التكبير وعبارات الإعجاب والدعاء له.

تكرر المشهد بعد كلمة المطران حداد، والشيخ الصابونجي.

أصدقكم القول أننا يومها لم نركز كثيرا على مضمون الكلام، بقدر تركيزنا على لباس المطرانين، وقسماتهما التي اعتبرناها كافرة، انطلاقا من رأي مسبق، لكنني تعرّفت يومها ولأول مرة على الرأي الآخر، واستمتعت بالسفر معه.

بعد ربع قرن تابعت مناظرة قيمة أخرى بين فرج فودة ومحمد خلف الله من جهة، والشيخ محمد الغزالي والهضيبي ومحمد عمارة من جهة أخرى (رحمهم الله أجمعين).

كانت حول(مصر بين الدولة الدينية والدولة المدنية) وقد تكرر المشهد ذاته وسمعت من الجمهور عبارات الاستهجان والاستنكار أثناء تحدث فرج فودة.

وكانت المناظرة السبب الرئيسي في اغتياله.

ربطت يومها بين المناظرتين برباط متين، وأدركت مبكرا جدا جدا أن الغلبة للصراخ وعلو الصوت وتوفز الأعصاب أثناء النقاش، لا للفكر الذي لا يسمع الغوغائيون منه شيئا وكنت منهم.

رفضتُ طلب المناظرة عدة مرات، واحترم ذاك العالم أو المفكر الذي يرفض أسلوب المناظرات، ويفضل عليه المقابلة المنفردة حيث يمكنه عرض أفكاره بتوسع ودقة ومنهجية علمية، بعيدا عن الرعب والتلاسن ورفع الصوت والحذاء وكاس الماء والتعصيب ورفع الضغط والكوليسترول والإصابة بالإسهال.

****

حرفٌ فقط

بين خدَم وهدَم إيقاع واحد وحرف مختلف.

من العجيب أنهما حرفان متجاوران في الكيبورد، كلما أردتُ استخدام الفعل خدَم، يظهر لي هدَم.

مشكلة كتابية لا تحدث إلا حين أكتب عن المواطن العربي.

أصلا هل هناك مواطن عربي، كي أتحدث عنه؟ بل هل هناك أوطان عربية؟

لقد عرّفوا الوطن تعريفا ظاهريا جافا، بأنه (رقعة جغرافية محددة يسكنها شعب مترابط لغة وتاريخا وعادات وتقاليد) ونسوا أهم رابطة تجمع المواطنين وهي الانتماء للوطن، حتى وإن تباهى البعض بتعريفات جديدة انتبهت لموضوع الانتماء، ولكن ذلك يظل شكليا ونظرية للتغنّي والمباهاة الفارغة.

فحين تسكن معي في وطن واحد، ويكون انتماؤك للقبيلة فأنت في غيتو انعزالي ودولة داخل دولة عنوانها القبلية.

وحين تنحاز إلى قوميتك قلبا وقالبا، وتتحزب لها فأنت وأفراد قوميتك تشكلون دولة داخل الدولة، أينما سكنتم ضمن حدود الوطن.(الحروب بين القوميات داخل وطن واحد شاهد على ذلك).

وأنت حين تنتمي إلى دين شمولي ـ ومعظم الأديان شمولية ـ فإن جسدك فقط يعيش معي في الوطن، بينما روحك تحلّق خارجه. هذا إذا كان دينك يعترف بحق الأديان المخالفة في الوجود على سطح الأرض، فكيف

يصبح الحال إذا كان يرفض ذلك، ويعتبر الدين أو المذهب المخالف كافرا باطلا ؟(الحروب الإثنية الدينية شاهدة على ذلك).

كذلك الحال إذا كنت منتميا إلى حزب بشري شمولي يتعدى حدود الأوطان، ويعتبر منطلقاته الفكرية هي الأصح لبناء مجتمع إنساني شامل.(الأحزاب الشيوعية مثال على ذلك).

جرى حوار مع صديق فلسطيني ينتمي إلى حزب ديني شمولي، قال لي: " إن أقصى قرية إسلامية في الشرق أو الغرب تعني لي مثلما تعني القدس أو مكة، لأنها جزء من الخلافة الإسلامية التي ستعود قريبا". فهل ينطبق عليه تعريف المواطن الفلسطيني.

حين يقرر سيد قطب في كتابه (معالم في الطريق) أن جنسية المسلم عقيدته فما الجنسية التي ستربطه بالوطن؟

وعليه فلا عجب إذا رأينا الأفغان الفلسطينيين يقاتلون في أفغانستان، ولم يطلقوا طلقة واحدة في فلسطين.

ولا عجب أن نرى تنظيم الدولة الإسلامية وجماعة النصرة يقاتلون في سوريا، على بُعد شبر من فلسطين، ولا ينفذون أية عملية ضد الصهاينة، بل ويذهبون للعلاج في مستشفيات حيفا وتل ابيب.

فاين هم المواطنون العرب؟

وأين هو المواطن الذي خدَم الوطن، في ليبيا واليمن وسوريا والعراق وسواها؟

وهل هناك اندماج وطني بين القومية الأمازيغية والعربية في حضن المغرب العربي الكبير؟

لنأخذ لبنان كمثال جامع لكل التناقضات السالف ذكرها، حيث الطوائف والمذاهب والأحزاب والحركات الدينية الشمولية،وحيث الأحزاب الإقليمية (حزب البعث، والحزب القومي السوري) والحزب الشيوعي الشمولي، وكلهم يتعايشون بتكاذب ونفاق، وتضارب في المصالح والانتماءات.

أوطان عربية لا يربط شعوبها بالوطن أي انتماء، فتراها تبيع ما فوقها وما تحتها لتوفير تكاليف الهجرة الطوعية مرة، والإجبارية مرات، بفعل التركيبات البشرية غير المتآلفة، وبفعل الربيع العربي الدامي، وبفعل قهر الأنظمة الحاكمة، التي هي أيضا تنتمي لغير الأوطان التي تحكمها، وأعتذر عن ذكر الشواهد لأنها قليلة للأسف، عددها فقط 22.

****

التشبّه بالكفار

سأحدثكم عن كلبي (بوبي)

أروع فترة من حياتي كانت، حين عملت مع شركة ألمانية في ليبيا، نِلت حقوقي كاملة غير منقوصة، وزادوني مكافآت حتى كدت أن أقول لهم كفى.

كنت أراقب حركاتهم وسكناتهم فأعجب بها، لذا أصبحتُ أسبقهم إلى العمل صباحا، وحين يرن هاتف مكتبي أرفع السماعة وأبادر بصوت مهذب رقيق مُعرّفا عن نفس: "said" ثم يعرّف المتصل عن نفسه، ويبدأ بطرح الموضوع، دون أن يسأل عن صحتي، وصحة زوجتي ووالديّ وأبنائي فردا فردا وفردة فردة، وعما سنطبخ اليوم، ودون تكرار ممجوج لحالة الطقس التي يعرفها السائل والمسؤول. وأضحيتُ أبتسم للمراجعين، وينشرح صدري ويتعاظم سروري كلما ازدادت المهام، لأن مديري المباشر كان يسجل التفاني والإنجازات، ويكافئني عليها.

لبِستُ مثلهم الشورت بعد الدوام، وانشأتُ حديقة حول منزلي، كانت محل اهتمامي الكبير، حتى أمسَت محجا للزوار، كانوا يهزون رؤوسهم إعجابا بحوض ورود شكّلتها كحروف إسمي.

مثلهم كنت أصطحب كلبي في نزهة على شاطئ البحر، وكانوا يضحكون، فأبادلهم الضحك كنوع من المجاملة، دون أن أسأل عن السبب، ثم أتشاغل بتفحّص ذاتي وثيابي، فلعل نشازا فيها هو الدافع للضحك، لكنني لم أكن أجد عيبا يُذكر.

الفضول كان يحثّني كي أسأل عن نوعية كلابهم المطيعة اللمّيعة، التي تتنطط حول صاحبها، تلاعبه ويلاعبها، ولكن بوبي كان ينهرني بنباح متواصل مقزز رديء اللحن، شادا الحزام الذي طوّقته به كي لا يتحرر ويغادر بلا عودة. لست أدري ما كان يود قوله، ولكن نظَره كان يتمركز حول ما يُشبه السرج فوق ظهور كلابهم.

قررت إنهم إخوان الشياطين، وقدّرت أنهم مسرفون جدا، لا بد أنهم يدفعون مبلغا طائلا لشراء كلب بهذه الضخامة والفخامة والجمال، مبلغا ربما يعادل راتبي خمس مرات.

لماذا التبذير؟ هاهو بوبي ـ ما شاء الله حوله وحواليه ـ

بارز الكرش والقفا، جهوري الصوت، فائق الأمانة والإخلاص، ينبح ليلا نهارا فقط، مانعا المارة من النظر، فضلا عن الاقتراب من سور حديقتي.

لا أعلم ماذا يُطعمون كلابهم، ولكنني أرفض بصرامة أن أُطعم بوبي معلبات، كانوا يستوردونها خصيصا لحيواناتهم المنزلية، ويشرونها بثمن غير بخسٍ، يعادل ثمن وجبات عائلتي لأسبوع.

أنا أرحم بكثير، وأشد رفقا بالكلاب منهم، كنت أرمي له بقايا طعامنا المتنوع، عظاما مُقَرقطة ممصوصة حتى النخاع، مع خليط من أرز مَبَـهّر بفلفل حار وطماطم عفا عليها زمن الصلاحية.

زرت يوما السيد (هنكي) وحقدت عليه، كان يحادث كلبه ذا الشعر الطويل المتناسق، الذي تفوح منه رائحة عطر، كنت أشمّه من صاحبه، وزاد حنقي عليه عندما سمعت صوت سيفون الحمّام، فسألته مستغربا: " هل هنا أحدٌ غيري وغيرك ؟ " فابتسم:" إنه كلبي (ماكس) يمسح القذا ويتشطف، ثم يسحب السيفون".

كذبتُ عليه يومها: " بوبي قد سبق الأوروبيين بأشواط، لأنه أكثر حرية من كلابكم، وأكثر حرصا على الطهارة، يشد السيفون مرارا، حتى دون الجلوس على كرسي الحمام، يفعلها متى شاء وأينما شاء، دون خجل أو وجل.

فهزّ (هنكي)رأسه موافقا،ثم ابتسَم.

ولأنني خبير في تحليل الابتسامات، فقد قرأت فيها:

"أيها الكذاب، أليس بوبي هو الكلب البرّي الذي رأيتك بأم عيني تسرقه وهو جرو صغير من حضن أمه؟".

حقدت على ابتسامته، استشطت غضبا فاكفهر وجهي وتشابكت قسماتي، ثم استسمحته بالمغادرة، راسما على وجهي ابتسامة منافقة، وأنا أتمتم مُشقّعا له تشقيعة شرعية:" تبا لك أيها الكافر اللعين، عليك من الله ما تستحق".

****

قصة مكرورة.

وقف الحضور طويلا مصفقين للزعيم وقد اعتلى المنصة فقال:

" أيها الشعب العظيم:

لقد نجحتم باقتدار في تطبيق الخطة الخمسية، التي نهضت بالبلاد من كبوة طويلة أغرقها فيها النظام البائد، وسأتلو على حضراتكم بنود الخطة الخمسية القادمة و....".

و راح يتابع كلامه، وسط الاستحسان والهتافات الداعية له بطول العمر، والفادية له بالروح والدم.

لفت الأنظار شخيرٌ يتصاعد من أحد المقاعد؛ فهبّ رجل الأمن إليه، ووكزه بعصاه فأجفل صارخا:

"لماذا ضربتني؟".

ـ كيف تنام والزعيم يخطب ؟

*** هذا صحيح، ولكن ـ عليّ الطلاق ـ أعرف ماذا قال الرئيس حرفيا وسيقول بعد لحظات: (وعليكم أن تتنبهوا لما يحاك لنا وللمنطقة من مؤامرات رجعية واستعمارية بغيضة).**

أنصت رجل الأمن بخشوع فإذا بالزعيم يردد حرفيا ما قاله الرجل المضروب.

ثم ابتسم في وجهه معتذرا: " قل لي يا ملعون أنك كتبت خطاب الزعيم ".

فرد الرجل ساخرا: "لست وحدي من كتب بل كل الحاضرين أيضا".

****

الدين الهشّ.

لماذا تقوم الدنيا ولا تقعد حين يعلن كاتبٌ ما رأيا مخالفا لفكرة ثبتت ورسخت عند المسلمين؟

فيُتّهم بالكفر والردة وازدراء الأديان. ولماذا قانون ازدراء الأديان لا يطبق على المسلم الذي يزدري الدين المُخالف؟

ما تأثير ذلك الكاتب على الدين ؟

هل سيهدم الدين كله إن جاهَر برفض قصة المعراج مثلا واعتبرها وهمية؟ أم سيصاب المسلمون في مقتل، حين يتسرب منهم مستمعٌ لبرنامج ابراهيم عيسى، فيترك الدين، أو يتشكك، كما قال لي أحد الأصدقاء المتابعين لما حصل (إذن فكل الذي تعلمناه منذ الصغر مشكوك فيه).

لماذا يهب المسلمون والمسلمات الأحياء منهم والأموات، في جهات الأرض الأربع للدفاع عن الدين، والذبّ عن حياضه، وكأن صرح الدين قد هُدم؟

ولماذا لا تُخصص المرجعيات الدينية، بضعة علماء باحثين متبحرين في علوم الدين للرد على منكر المعراج؟ ولينشغل باقي المسلمين في وظائفهم وأعمالهم، ونشاطاتهم الترفيهية وحتى الجنسية.

هل الدين بهذه الهشاشة كلوح زجاج رقيق، لا يحتمل مجرد اللمس حتى؟ أم يشبه برميل بارود، يُفجره صاعق متمثل بمقال هنا، أو رسم كاريكاتوري هناك أوحلقة تلفزيونية هنالك؟

أم الأمر متعلق بالمتدينين؟ الذين تماهوا بالدين فصاروا مقدَسين، وباتوا يعتبرون أي مساس بفكرة من أفكار الدين مساسا شخصيا بهم.

أم لأنهم اعتنقوا الدين بالتقليد والوراثة، ككَنزٍ نفيس لا مثيل له، وأنه المنقذ الوحيد للبشرية من كل مشاكلها المستعصية، فهم يرفضون أي مساس به، لأن ذلك يشتت أفكارهم، ويدعوهم للبحث والتنقيب، وهم لا يحبون ذلك، وربما يعجزون عنه، لذا يكتفون بتكفير المخالف وتهديده لأنه أسهل وأقل تكلفة وجهدا.

قد يكون السبب واحدا مما تقدم أو كلّه، ولكنني أعتقد

أن السبب الجوهري هو ضعف الإيمان بصحة هذا الدين عند الغالبية العظمى من المسلمين، وشَكّهم بعدم تماشيه مع العقل والمنطق والعصر، ولعدم ثقتهم برجال الدين وقدرتهم على المحاججة والمناظرة والإقناع. لذا تراهم يحملون السيوف في وجه الفكرة، تماما كما فعل كفار قريش مع النبي عليه السلام. سيوف التكفير والتجهيل والتفسيق والهرطقة. ولولا أنهم خائفون من وصف الناس لهم بالسذاجة لاتهموا المخالف بالسحر والشعر والجنون.

مشهد غريب يختصره: رصاصة واحدة تُفرّق مظاهرة، وإصبع ديناميت يفجر أبراج العرب.

****

الشكر واجب.

بعد الضجة المثارة حول قصة الإسراء والمعراج قمت بالتمعن فيها وتحليلها، فوجدت أنه من واجبي أن أتقدم - بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن مليار ونصف المليار من المسلمين - بالشكر الجزيل والامتنان العميق لسيدنا موسى عليه السلام، لأنه نصح سيدنا محمد عليه السلام بالعودة إلى الله ليسأله التخفيف عنا، وتخفيض عدد الصلوات في اليوم والليلة من خمسين إلى خمس فقط.

فلولاه لكان علينا أن نؤذن خمسين مرة لخمسين صلاة، أي بواقع صلاة كل نصف ساعة تقريبا.

ويشاركني بالشكر غير المسلمين من أهل الوطن، وكذلك سكان القارات السبع، الذين سمحوا للمسلمين المهاجرين إليهم ببناء المساجد، وبالأذان لكل الصلوات.

****

دعدوش

أعترفُ بأنني ظلمتُ تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، حين تلقفتُ كلمة داعش، ورحت ـ كما غيري ـ استخدمها في المقالات والردود والتعليقات الفيسبوكية. كانت داعش تمتعض من هذا الاختزال، وهذه التسمية الممتلئة هزءا وسخرية. ولها الحق في ذلك.

ظلمتُ داعش حين وصمتها ـ كما غيري ـ بالتعصب والانغلاق الفكري، وبأنها تحتكر الحق والحقيقة الفريدة وحدها دون سائر البشر.

ظلمناها جميعا، لأننا نظرنا إليها وإلى أفعالها فقط، ولم نكلف أنفسنا ـ ولو للحظة ـ عناء النظر إلى أنفسنا، وإلى أفعالنا.

دلوني على دين سماوي غير الإسلام، أو مذهب إسلامي مخالف لداعش، لا يَعتبر معتقَده أنه الحق الوحيد، وخاتم الديانات، وأن مخالفه كافر أو فاسق أو ـ لندلعه قليلا ـ مبتدع، كما وصف القرضاوي الشيعة.

كل متعصب لمعتقده الديني، ومخَطّئ لسواه هو داعشي، بل إن كل متعصب لفكره او حزبه أو حركته، ورافض لسواه داعشي بامتياز، وكذلك كل حاكم دكتاتور أو ملك أو أمير هو داعشي من نوع مختلف، تنوعت الاشكال والجوهر واحد.

رجل الدين داعشي، وشيخ القبيلة داعشي، وأستاذ المدرسة داعشي، ورب البيت داعشي، والمجتمع الذكوري داعشي. القاضي والمحامي والطبيب

والميكانيكي، ومُسلّك المجاري ووو كلهم دواعش بنسب مختلفة.

الناقد الأدبي والفني داعشي، والأديب والفنان والقارئ دواعش باحتراف. مارك زوكربيرغ داعشي، وشركة الاتصالات، والوزراء والنواب وفرّاش المؤسسة كلهم دواعش.

الزوجة دعدوشة حين تحرن وتترك بيت الزوجية مدّعية أنها مظلومة، بينما يُقسِم زوجها والجيران وكل الحي أنها ظالمة. والطفل دويعش، حين يحتكر الألعاب دون أخوته، ويستولي على حاجاتهم.

حين يقوم الصهيانة بهدم منازل الفلسطينيين وسَجن الأطفال والنساء وسرقة الأرض، جهارا نهارا فهم دواعش، وحين تؤيدهم أميركا وروسيا والغرب والشرق، فهؤلاء دواعش أيضا، بل وأشد تدعدشا من الصهاينة.

حين يقف العلماني والملحد والشيوعي والراسمالي ليعلن أن منهجه هو الحق المؤدي إلى سعادة البشر، وأن المتدينين متخلفون فكريا، ورجعيون مسلكا وطريقا، فهم دواعش.

لذا اسمحوا لي أن أصوغ تناصا مع الحديث الشريف فأقول: كل مولود يولد على الدعدشة، وأبواه يُهودانه أو يُمجسانه أو يُنصرانه أو يُأسلمانه أو يُملحدانه أو يُعلمنانه او يجنّنانه...

والأخيرة هي الحق المبين، الواحد الأحد في اعتقادي. ولكنني لست داعشيا.

****

وخزة.

قرأت في القرآن (إن الله يدافع عن الذين آمنوا)
ولم أجد فيه: إن الذين آمنوا يدافعون عن الله.
القوي القادر يدافع عن الضعيف المظلوم، وليس العكس.

****

لا داعي للهلع.

نحن في مرحلة المخاض لميلاد فجر التحرر الفكري من سلطة رجال الدين.

نحن في عام 1517 يوم نشر مارتن لوثر وثيقته الإصلاحية المعترضة على شطحات الكنيسة الكاثوليكية، وتحكُّم الكنيسة برقاب الناس، متحالفة مع رجال الإقطاع والسلطة.

التنويريون اليوم يلاحَقون قضائيا، وبرسائل التهديد، وبالرصاص.

صمد مارتن لوثر وتحررت أوروبا، وعليكم اليوم أن تصمدوا.

للحرية ثمن، ولا يدفعه إلا الأحرار، الراغبون في مجتمع سليم، معافى من التطرف والإرهاب، فيه مكان للجميع بالتساوي في الحقوق والواجبات، دون تسلط دين على باقي الأديان، ودون تسلط مذهب على مذهب.

مجتمع شعاره

- الدين لله والوطن للجميع.

- أنت حر ما لم تضر.

- الفكر يواجَه بالفكر، لا بالسلاح.

- تنتهي حريتك حين تبدأ حرية الآخرين.

****

أسلمة الدول الأوروبية

تعالوا نتخيل المشهد:

لا أنطلق في مقالتي هذه من خيال كاتب أدب، ولا من أحلام اليقظة فقط، بل من خلال كمٍ هائل من المنشورات الافتراضية المرحبة بذلك، بعد تصريح للقذافي، يتنبأ فيه بتحول دول أوروبية إلى الإسلام، وبعد ترحيب مماثل لتنبؤ الداعية المنطفئ عمرو خالد بمثل ذلك، والأهم الأهم هو تصريح الكاتب الفرنسي ميشال ويلبيك والذي علق على عبارة الإسلامفوبيا، شارحا باستهزاء وسخرية هذا المفهوم، متحدثا بهزء واضح على مشهد فرنسا وقد أصبح الرئيس مسلما، والقرآن والحجاب مفروضان على المجتمع الخ...

من حقي أن أتخيل واستشرف المستقبل:

لنفرض جدلا أن نسبة المواليد المسلمين في أوروبا ستقلب الموازين لصالح المقترعين المسلمين في الانتخابات، وسيترأس المحامي (عبد الحفيظ محمد عبد الفتاح) بلدا مثل ألمانيا، فكم عدد الالمان الذين سيتحملون نطق اسمه؟ وماذا سيحدث؟

هل ستقبل دول الناتو الأخرى وحليفها أميركا، بل وروسيا والصين واليابان واسرائيل ودول اميركا الجنوبية بهذا؟ وهل سيقبل سكان البلاد الأصليون الجرمان بهذه النتيجة؟ وهل سيقبل غير المسلمين والعلمانيون والملاحدة بذلك؟

قد يقبلون لأنهم يحترمون الديمقراطية، ولكن ما بال النازيين الجدد، والأحزاب اليمينية المتطرفة التي تجهر ليل نهار بعدائها للمهاجرين وخاصة العرب والمسلمين؟

وقد سمعنا عن التمييز العنصري ضد المحجبات كمثال.

لن أتخيل مجلس النواب وهو يقرر جعل القرآن والسنة الإسلامية مصدر التشريع. ولن أتخيل الجامعات وهي تغير مناهجها الفكرية بما يتناسب مع فقه الإمام أحمد بن حنبل كمثال، ولن يذهب بي الخيال لرؤية دور تحفيظ القرآن والمراكز الدعوية أضعاف مراكز البحث العلمي، ولن أتخيل عدد دور النشر للفكر الإسلامي أضعاف دور النشر المتحررة، ولن أتخيل إغلاق دور المسرح والسينما والأوبرا وتحويلها إلى منابر دعوية شريفة. ولن أتخيل أصدقائي موللر وفيللر وباور وماير وهم يرتدون السروال القصير تحت قميص أفغاني، بلحية طويلة مخضبة بالعصفر، وخاتم بني محروق على الجبهة، وسواك يستاكون به وهم يقطعون الطريق رغم الإشارة الحمراء الخاصة بالمشاة.

كل هذا وغيره كثير، لن أتخيله.

ولكن اسمحوا لي أن أتخيل مشهدا واحدا ناتجا عن سؤال بسيط وربما سيتهمه البعض بالسذاجة والسخف:

(إسلام) كلمة عامة فضفاضة، لا بد من تحديدها، عن أي إسلام نتحدث، ونحن نشهد إسلامات كثيرة، لا إسلاما واحدا جامعا مانعا؟

أي مذهب إسلامي هو الذي سيحكم؟ بل أية حركة من حركات الإسلام السياسي ستحكم؟

وهل سيرضى باقي المذاهب والحركات الإسلامية بحكم أمير مؤمنين مخالف لمنهجهم، ومعتقداتهم الفكرية الراسخة، التي لا تقبل النقاش؟

تصورٌ سيصفه البعض بأنه خاطئ، لأنه مبني على حتمية الاختلاف والخلاف، بينما المنطق يقضي بأن الاتفاق ممكن أيضا، ومحتمل وليس مستحيلا.

هنا أستشهد بمثال واقعي ميداني قريب لا يقبل النقض:

ما حدث في مصر بعد استلام الإخوان سدة الحكم في مصر، وكيف تحالف السلفيون مع نظام الرئيس السيسي لخلع مرسي.

ومثال آخر مستمر حتى اللحظة، ما يحدث في ليبيا الحبيبة بين الأخوين اللدودين الإخوان والسلفيين.

دعوا أوروبا منتعشة في سلام، حتى لا تندم كما ندم روجيه جارودي الذي قال "الحمد لله أني عرفت الإسلام قبل أن أعرف المسلمين".

وتفضلوا سخروا جهودكم لتجديد الخطاب الديني، وإعادة أسلمة مجتمعكم الأم، وبنائه من جديد، على الأسس الحقوقية التي تنعمون بها في أوروبا، وعندها سيدخل الأوروبيون في دين الله أفواجا.

دعوا أوروبا تعِش بسلام.

****

رفض الجديد.

بين الجديد والقديم /بين الأصالة والمعاصرة/ بين التراث والحداثة الخ...

عبارات متعددة لمفهوم واحد: العلاقة بين الموروث القديم من الفكر وبين الجديد الحديث المعاصر.

يبدأ الخطأ مباشرة من استخدام الظرف (بين) وكأننا أمام كلمتين يفصل بينهما مكان شاسع وزمان واسع، وهما متحاربان متدافعان في حرب يجب على أحدهما فيها أن يلغي الآخر ويحل محله. بينما تخبرنا وقائع التاريخ أن الفكر والعلم والثقافة والفن سلسلة متصلة عبر العصور، وأن الفصل بين القديم والجديد فصل تعسفي خيالي، يتصوره الذهن تصورا فقط، من أجل الفهم والمقارنة، لا من أجل الإثبات المستمر في مقابل الرغبة في الإلغاء.

لو تتبعنا الشعر كمثال، لوجدنا أن الشعر العمودي الكلاسيكي ظل هو الوحيد المهيمن على المشهد الأدبي حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولم نقرأ إلا بضع قصائد عمودية متنوعة الرويّ، كبعض قصائد إيليا أبي ماضي، ثم بعد اختلاط الشعراء العرب بشعراء الغرب تم استيراد شعر التفعيلة أي الشعر الحر، المنفلت من قيود البحور الخليلية، والمبني على تفعيلة واحدة، هنا قامت قيامة النقاد والشعراء المنافحين عن الأصالة والتراث ورفضوا هذا التجديد المستورد الذي لا يشبه ثقافتنا في شيء، وراحوا يكيلون التهم للمجددين بتدمير الهوية الثقافية الموروثة. صمد المجددون فأنتجوا قصائد من عيون الشعر، فتغيرت نظرة العديد من شعراء الأصالة، وراحوا

يجربون ويدلون بدلائهم في هذا المعين الزاخر الحر المعبر، فتساوت النظرة إلى القديم والجديد وتجاورا معا. ثم أطل علينا بعض الشعراء بقصيدة النثر المتحللة من كل ما يمت إلى بحور الخليل بصلة، وظلوا يحاولون إقناع متذوقي الشعر بجمالية هذا النوع، لكنهم لم ينجحوا حتى الآن في ذلك، لانعدام الإيقاع الخارجي في قصائدهم، وقد ينجحون مستقبلا.

وهكذا حدث مع السرد القصصي، فمن الرواية إلى القصة القصيرة ثم القصة القصيرة جدا، وهكذا حصل مع الفنون الجميلة كلها.

إذًا يمكن استنتاج القاعدة:

ترسخ القديم ← ورود الجديد ← رفض الجديد ← تجاور القديم والجديد والقبول بالوافد الجميل ←ترسّخ الجديد. وهكذا دواليك....

هل التجديد في الخطاب الديني يخضع لهذه القاعدة ؟

نعم وبكل تأكيد، فهذا ما يقتضيه منطق التطور والتجديد.

المخاض هنا سيكون عسيرا جدا، لأن الدين ليس منتجا بشريا كالأدب والفن، فهو يلبس ثوب القداسة، الذي لم يُغلّف النص المقدس فقط، بل تم تمطيطه ليغلف رجال الدين ونتاجهم المتمحور حول النص المقدس، وهذا ما جعل رجال الدين والمتدينين عموما ينعتون المجددين بالكفر والزندقة والإلحاد، لمجرد الحديث عن تنقية كتب التفسير والحديث والفقه والسيرة، مما علق بها من مرويات وقصص وأقوال تخالف صريح القرآن الكريم.

هذا الرفض المتواصل المستمر حتى هذه اللحظة أنتج أمرين خطيرين:

1- رفض الاجتهاد المعاصر، والتوقف عند ما قاله وقرره السلف الصالح، والدوران في حلقة مغلقة، مع أن السلف قرروا أن القرآن والسنة صالحان لكل زمان ومكان، بما أن الإسلام هو الدين الخاتم.

2- قيام حرب شرسة ضد الدين بكل تراثه من طرف المستشرقين والفلاسفة والمفكرين، لأنهم وجدوا أن الدين بشرحه وتفسيره الموروث، لا يتماشى مع العصر المتطور، وهكذا ظل الفكر القديم يراوح مكانه، تاركا للمجالس النيابية مهمة التشريع، دون أي غطاء من قداسة، ودون أي استناد إلى نص ديني مقدس.

مثال على ذلك ما قام به الراحل محمد شحرور، فقد استعمل حقه المشروع في التفسير كما استعمله عشرات المفسرين قبله، استنادا إلى مقولة سلفية بأن القرآن حمّال أوجه، ومع ذلك تم تكفيره وتجهيله، وبأنه يحاول هدم الدين، مع أننا لو قرأنا التفاسير القديمة لوجدناها تعجّ بالإسرائيليات ووضع الرواة، وبالقصص الخرافية والأساطير القديمة التي جاء الإسلام كي يهدمها ويلغيها كقصة المعراج وقصص أنبياء بني إسرائيل على سبيل المثال لا الحصر.

التطور والتجديد سنة كونية، وعلينا أن نقبل بها إذا أردنا تقديم الدين للأجيال المتعاقبة، وهذا أمر مشروع ومطلوب، طالما أنه لا يقترب من كتاب الله المتفق عليه من جميع الفرق والمذاهب والحركات منذ فجر الإسلام.

هذا التجديد مطلوب وبشدة من المرجعيات الدينية العليا التي عليها واجب إصدار دراسات حديثة وبشكل مستمر، تشرح الدين وكتبه المقدسة بما يتماشى مع العصر، وعليها واجب تنقية كتب الحديث والفقه والسيرة القديمة

من كل ما من شأنه أن يوجه للإسلام سهام المنتقدين والطاعنين.

الدين يُسر وبسيط، ولكن المشهد المرعب اليوم يؤكد أنه لم يعد كذلك.

****

عيد الحب والسَبّ

ككل شيء في حياتنا، يتكرر النقاش كل عام حول الموضوع ذاته، عيد الفالانتاين.

المتعصبون دينيا يشتمون العيد وصاحب المناسبة القديس الكاهن فالانتينو، مُكفّرين من يحتفل به، لأنه يقلد الكفار، ببدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولا ورد ما يبيحها من قرآن أو سنة.

في المقابل يدافع المتحررون فكريا عن هذا العيد وما يماثله من مناسبات الفرح.

أسئلة تمغص فكري:

1- ألم يبتدع المسلمون مناسبات فرح وترح، أصبحت من لبّ الدين وجوهره كالمولد النبوي، وعاشوراء (المتناقضة طقوسها بين المذاهب ؟)

2 - إذا كان تقليد الكفار بدعة سيئة محرمة، فلماذا يقلدهم المسلمون في اللبس والطعام والفن والأدب والفكر والفلسفة وفي شتى العلوم، بل ويستوردون مناهجهم التربوية الفاعلة، والمبنية على نظرياتهم التفكيكية والبنيوية وغيرها ؟

3 ـ كم نسبة المسلمين الذين يحتفلون بعيد الحب وهم على معرفة بقصة فالانتينو؟

4 ـ لماذا لا نعتمد هذا العيد مناسبة للفرح وإسعاد من نحب، دون الخوض في أصل نشوئه وارتقائه؟

5 ـ لماذا لا نبادر كمسلمين، ونخترع أعيادا مماثلة، للفرح كتقدير الجد والجدة، والحماة والكنّة، والأخ والأخت، زيادة على ما استوردناه من الغرب من أعياد كعيد الأم العظيم، وعيد الأب الباهت، وعيد الميلاد ورأس السنة.

6 ـ هل الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج أهم من الاحتفال بعيد الأم والأب؟

7 ـ وهل عيد (الاستقلال المزعوم) وعيد جلوس الزعيم على العرش أهم من أعيادنا الشخصية الخاصة؟

8 ـ لماذا لا نخترع عيدا للسلام، وللنجاح، وللشفاء، وعيدا للنجاة من المصائب، وعيدا للفقراء نقدم لهم فيه الهدايا والمال وألعاب الأطفال والألبسة الجديدة غير المستعملة ؟

ليقم المرجع الديني الأعلى بالاحتفال بعيد واحد مما سبق ذكره، وستجد الأتباع ينسجون على منواله، وينتهجون نهجه، فهل سيفعل ؟

أشك في ذلك، ولكن اشهدوا أنني بلّغت.

****

(عليه من اللّه ما يستحق)

تشقيعة شرعية مهذبة، يدعو بها المسلم التقي النقي الخلوق الوقور الملتزم، على من ينشر كتابا او منشورا فيسبوكيا حول الدين ورموزه، حتى وإن كان هدفه تنقية الدين مما علق به من شوائب وبدع وتأويلات خنفشارية.

قرأت هذه التشقيعة موجَهة للمفكرين الباحثين المجددين المرحومين، مالك بن نبي وأركون والعابدي وفرج فودة ومحمد شحرور وعدنان ابراهيم وسيد القمني، وربما كاتب عادي مثلي ومثل الكثيرين.

لماذا أنا ؟ لأنني وصفتهم بالمرحومين.

نشرتُ ذات مرة موضوعا يتعلق بإنكاري بعض ما ورد في السيرة النبوية، وعدم ثقتي بمحتواها المناقض لشخصية الرسول كما وردت في القرآن، فبعث إليّ غيورٌ جزائري ملتح برسالة تهديد على الماسنجر وختمها داعيا عليّ بالتشقيعة المهذبة (عليك من الله ما تستحق، وعسى أن يحشرك مع من تحب).

وليس هذا موضوعنا.

المهم انني تعشيت ليلة أمس طون مع قرن حر أخضر وصلصة ثوم مع زيت وحامض، ذلك لأن زوجتي تُخيّرني يوميا بلهجة حانقة وقسمات غاضبة (شو أجيب لك تتعشى لبنة أو بيض)ولأنني يعربي متفهم، هادئ الطباع، قلت لها: طون.

تخيلوا بشرا يتعشى طون.

عشاء أشبه بالمخدرات، يجعلك ممغوصا، تتقلب تحت ثلاث حرامات في غرفةٍ، درجةُ حرارتها صفر، برفقة أحلام يقظة ممتدة، لاعنا سوء خلقي الذي أغضب قرينتي، حين خرجتُ على خياراتها اليومية، وتعشيت ما جعلني أعطش عطشا لا يعادله إلا عطشي يوم الحشر.

ولماذا سأعطش يوم الحشر؟ فأنا كنت مؤمنا، تمّمت واجباتي الدينية، كما يقول أحبائي المسيحيون (عليهم من الله ما يستحقون) وكما علمهم إلاههم المسيح الفلسطيني الذي أحبه حبا عظيما، لأنه لم يتزوج ويَعلق مع زوجة تُخيّره في عشائه الأخير بين اللبنة والبيض، ولأنه كان مسالما، طيّب القلب متسامحا، يتلقى الصفعة على خده الأيمن فيدير الأيسر للصافع.

وليس هذا موضوعنا.

لماذا أعطش يوم الحشر ؟ فالله القادر سيوفّر لمليارات البشر، وللوحوش التي ستُحشر معهم، حنفيات ماء لن يشرب منها إلا المؤمنون الذين سيحملون شهاداتهم في أيديهم اليمنى، وسوف أتلذذ لمنظر الكفار الذين سيظلون أحياء بلا ماء يوما كاملا مقداره خمسون ألف سنة، وبما أنني(مُقَـلقز) غير ثابت العقيدة ـ كما وصفني صديقٌ معتَرَفٌ بجنسيته لأنه لبناني منذ عشر سنوات ـ فسأطلب من الله أن يميتني في بقيع يثرب، لأن الموت فيها من علامات الصلاح والتقوى، ولا أظن أن الله سيَحشر أهلها عراةً مثلي ومثل هيفاء وهبي، التي لن تُحشر معي للأسف الشديد (عليها من الله ما تستحق) مع أن الله القادر يستطيع أن يحشرنا لابسين ـ بل وثيابا أنيقةأيضا ـ وهو أهون عليه. وسأكون سعيدا جدا وأنا بعمر 33 مثل جميع الرجال يوم الحشر. لماذا 33 تحديدا ؟ أظن أن هذا التحديد من المسيحيات (على وزن إسرائيليات) التي

حُشرت في الدين الإسلامي، لأن عمر المسيح على الأرض دام 33 عاما، ومن المسيحيات أيضا بدعة المسبحة ذات ال 33 حبة، وسيصحح لي أحد الملتحين الأبرار هذه التسمية ويُعلّق (اسمها سبحة يا جاهل، عليك من الله ما تستحق) وال 33 عمر رائع وعادل، إذ ليس من العدل أن أُحشر، وأدخل الجنة طبعا، مع حوريات ملكات جمال وأنا في الثمانين من عمري مثلا، أو يدخل حفيدي الجنة وقد مات وعمره 9 سنوات، فماذا سنفعل بالحوريات؟ سنكتفي بالأكل والشرب بلا فائدة مرجوة. لذا أجزم أن 33 عمر مقبول ويمثل قمة العدل الإلهي.

وليس هذا موضوعنا.

المهم تقلّبت في سريري المتجمد طويلا، ثم قررت كتابة مقال أتحف به قرائي غير المنتظرين لما أكتب(عليهم من الله ما يستحقون) ورحت أفكر في موضوع مهم، فلم أجد موضوعا أمتع وأهم من الحديث عن علبة الطون، التي صنعها لنا ملحد تايلاندي غشاش (عليه من الله ما يستحق) فطعمها زفر رديء، لا يشبه تلك الماركة الجيدة التي صار الأثرياء فقط قادرين على شرائها. فجلست في سريري أرتجف بعد أن حاولت إشعال الصوبا (المدفأة) المجاورة وفشلت، لأن الطاسة فارغة من المازوت الذي صار باهظ الثمن، مرهقا للجيب وهو غير متوفر أصلا، ومع احتياجنا الشديد له فإني أصب اللعنات الشرعية على الإمبريالية والاستعمار الذي استخرجه لنا من أرضنا العربية، وكرّره لنا ثم باعه لنا، وحرّف الآية فصارت (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعاركوا).

سأتّقي البرد وأضع قبّوعة البيجاما فوق رأسي، ولن أنسى أن أشقّع للصيني الذي صنعها لنا، ثم لن أستل القلم والورقة للكتابة، فهذه عادة رجعية بائدة، يكفي أن

أشغل هاتفي الجوال، والذي اخترعه لنا الملحد العلماني البغيض مارتن كوبر (عليه من الله ما يستحق)ثم افتح برنامج notepad وأكتب ما أشاء، وسأفتح برنامج - طوّره لنا اليهوديان الصهيونيان الهالِكان، سيرجي براين ولاري بيدج، عليهما من الله كل الاستحقاقات - غوغل أو جوجل أو قوقل، كله جائز لغويا، طالما أن المخترعَين ليسا عربيين، بل أميركيَين. سأبحث عن معلومة ضرورية جدا جدا، أتدرون لماذا ؟

أجل ! كي تنقذني من الأرق، عنوانها(كيف تنام بعد أن تتعشى طون).

وليس هذا موضوعنا.....

****

نحن فقط.

لا تنقطع الحضارة فجأة إلا عندنا نحن العرب.

هكذا ولمجرد أن أعلن النبي عليه السلام دعوته، حتى صار ما قبله عصرا جاهليا بكل المقاييس والاعتبارات، ومعه انطلق ركب الحضارة، ولم تُسجل للعصر الجاهلي أية حسنات، اللهم إلا البراعة البلاغية الشعرية التي استبقاها المسلمون لإثبات إعجاز القرآن، حيث تحدى أرباب البلاغة الجاهليين أن يأتوا بسورة من مثله.

وهكذا يتوارث رجال الدين ويتناقلون مقولة خاطئة تاريخيا، بأن الغرب توقفت حضارته بعد مجيء الإسلام، فلم يعد له أي اتصال بحضارته اليونانية السابقة، وأنه لولا علماء المسلمين لبقي غارقا في ظلمات الجهل، والغباء المتمثل بشراء قطع أرض في الجنة الموعودة، وكأن مصائب المجتمعات الإسلامية إبان تلك الحقبة كانت مقبولة ومستساغة حضاريا، مع أنها عجّت بالظلم والتمييز العنصري على أساس اللون (ثورة الزنج في البصرة) ونكبة البرامكة، والتمييز القومي المتمثل بالشعوبية التي دافع عنها شاعر الخمرة الحسن بن هانئ، المُكنّى عن قصد تمييزي بأبي نواس، أي ذي الذؤابتين المنسدلتين على صدغيه كاليهود (حسب تحليل نظرية المؤامرة).

وكثرت فيها الانقلابات الدموية والمؤامرات، والاستنجاد بالغريب على القريب. سلوكات غير حضارية أورثت الانقسام، والحروب الإلغائية الداخلية، في شرق البلاد وغربها. ولو اقتصر الأمر على هذا لكان هينا، ولكننا قرأنا عن التمثيل بأجساد المعارضين، والقضاء على

بعض المفكرين المخالفين بالحرق والصلب والسجن، وملاحقة أصحاب الديانات والمذاهب المخالفة للسلطة الحاكمة، ولفقهاء القصر.

سيعترض البعض بأن شمس العرب سطعت على الغرب علميا، ويستشهد بالرازي وابن سينا وابن حيان الخ... من علماء غالبيتهم من غير العرب، هذا صحيح، ولكن الحضارة الإنسانية شاملة لا تنحصر بالبحث العلمي، والتطور التكنولوجي فقط، بل تشمل حقوق الإنسان والحيوان والبيئة، وتشمل التعليم والتربية والفكر والفلسفة والفنون وعلوم الإنسان أيضا.

في غضون المد العلمي العربي كان فلاسفة الغرب متواصلين مع فلسفاتهم السابقة متأثرين بها، تماما كما تأثر العرب بها، عبر ترجمة الفكر اليوناني والفارسي والهندي.

ثم فجأة وبقدرة قادر توقفت الحضارة العربية، أو الإسلامية ـ كما يحلو للبعض تسميتها لأن المجتمع كان مسلما في نظرهم ـ علما بأن العديد من الفلاسفة والمفكرين والمكتشفين كانوا أقرب إلى الإلحاد ونقد الدين القائم على الغيب.(ابن سينا، الفارابي، ابن حيان، الرازي، ابن المقفع كمثال فقط.) ويمكن الرجوع إلى كتاب(من تاريخ الإلحاد) لعبد الرحمن بدوي.

البعض سيعزو سبب التجمد الحضاري إلى المغول والمماليك والفاطميين والعثمانيين، والبعض سيدافع عنهم لأنهم استمرار رائع للخلافة الإسلامية الممتدة من الهند وحتى الأندلس. ولكن السؤال يظل قائما: هل قتل العثمانيون العلماء ومنعوهم من الانكباب على الكشف والبحث والاختراع؟ ولماذا توقفت الحضارة فجأة؟

هكذا ظهرت الحضارة الغربية فجأة في نظرنا، وانطمست الحضارة العربية فجأة أيضا وما زالت منطفئةً، كجغرافيا ممتدة من رماد.

الحضارة سلسلة متصلة تتطور مع تطور المجتمعات البشرية كنهر رائق جارٍ، تُـغذّيه روافد من علم وفكر وفن، وكشف واختراع، روافد لا تنبع من داخل دولة محددة، منقطعة عما يجاورها من دول وحضارات، بل يرفد بعضها بعضا تأثرا وتأثيرا، لسبب بسيط:

أن الحضارة كالفكر والفن والثقافة لا جنسية لها، وهي عابرة للقارات، وملك للبشرية جمعاء.

****

بين الضحك والبكاء.

حين قرأت أن المرحوم ريان علق في قعر البئر بعرض 20 سم، أي بعرض الكف، بكيت ثم ضحكت، وحين رأيت رسما توضيحيا يؤكد أن عرض القعر ليس 20 سم بل 10سم بحجم قبضة الكف فقط، قهقهت باكيا.

معظم الصفحات التواصلية تفاعلت مع الطفل البريء وراحت تلهج بالدعاء لإنقاذه، والبعض استهزأ بالله لأنه لم يستجب للدعاء، وبعضها اعترض على هذا الاهتمام بطفل سقط في بئر، بينما أطفال الحرب والتهجير يموتون متجمدين ولا من يهتم ويدعو، فبكيت ثم بكيت.

بعض الغيارى امتعضوا من جر المصيبة نحو السياسة، فاتهموا الجارّ المسيّس بتسخيف الحدث، وحرفه عن مساره، وكالوا لهم تُهما أقلها جفاف المشاعر. وردّ الذين مطمطوا الحدث لإلباسه ثوب القومية العربية ردا عنيفا وصل حد السب والشتم ثم(البلوك)فبكيت ثم بكيت ثم بكيت.

النظام والتنظيم الرتيب ـ قاتله الله ـ يقضي بأن تهبّ الأقلام العربية كلها عن بكرة أبيها ـ وما حدا يسألني ما معنى بِكرة ـ لتتفاعل مع لاجئي الأقطار العربية في هذا الوطن الأكبر، ثم تتفاعل كلها مع ريان في المغرب وهيثم في ليبيا وزيد وعبيد في لبنان ومخطوف هنا ومدعوس هناك، ولكن هذا سيورث الملل الروتيني وليس فيه متعة، بينما الإمتاع تحقق في الفوضى التحليلية وفي حلبات المصارعة الكلامية، وحلقات الردح والتشقيع المهذب، وفي التخوين والتسخيف والتجهيل والتجديف، ولهذا ضحكت ثم ضحكت.

مات ريان رحمه الله بعد أن استغل مأساته من استغل، (وراحت السَكرة وأجت الفَكرة) فسادَ الحزنُ والترحم عليه كل الصفحات لمدة ساعة فقط، ثم استل المحللون الفيسبوكيون الضالعون بمعرفة خبايا الأمور أصابعهم وانبروا يغرقون الصفحات التواصلية بتحليلاتهم المنطقية المبنية على مقدمات يقينية:

البعض اتهم الديوان الملكي والنظام بالتقصير وبأنهم كانوا يعلمون علم اليقين بأن ريان قد مات خلال الأيام الخمسة وقبل بدء حفر البئر الموازية لغاية في نفس يعقوب، لم يعلمها المحللون.

البعض من خبراء السقوط أكّد بأنه مات منذ لحظة سقوطه من علو ثلاثين مترا، وتم إخفاء هذه المعلومة من قِبل يعقوب ذاته.

البعض اتّهم والديه بالتقصير، والبلدية بعدم وضع غطاء للبئر.

ولأنني من عشاق نظرية المؤامرة، أجزمُ بأن والد ريان الذي يبدو من صورته أنه عصبي المزاج، ووالدته الحيزبون قد تلاسنا بسبب خطأ ارتكبه ريان، فدفَشَ الابُ الإبنَ بقدمه دفشةً أسقطَته في الجُب، ثم راح يولول طالبا النجدة من السيّارة الذين التقطوه جثة هامدة بعد كمشة من الأيام، وها انا محتار الآن أأبكي أم أضحك، أأضحك أم أبكي ؟

وهذه هي الفوضى الممتعة.

****

الفوضى

لطالما عشقت هذه الكلمة المناقضة للنظام.

النظام هذه الكلمة اللعينة التي تأسر الإنسان وتكبّله ضمن سجن محكم الحراسة من أنظمة وقوانين وتعليمات، فتجعله مبرمجا يتحرك كالمنوم مغناطيسيا أو كالروبوت المسيّر بريموت كونترول.

النظام العام،النظام الحاكم،النظام الديني، النظام الوظيفي، المدرسي، الزوجي، العائلي، كلها كلها قيود.

كلنا نحب الطفولة ونحن إليها. نتشدق بثقة: " براءة الأطفال "وفي الحقيقة نحن كاذبون، إنهم شياطين بامتياز، ونحن نعشقها لأنها تمثل الفوضى واللامسؤولية وعدم الانضباط.

الطفل أسعد المخلوقات لسبب بسيط لانه فوضوي.

كان الطالب الكسول أمتع التلاميذ وأحبهم إلى قلبي، لأنه فوضوي بشكل ما. لم أصاحب أي شخص منظم يحب الإتيكيت والبروتوكولات المظهرية الكريهة.

لذا فكل من صادقتهم كانوا من الكسالى الفاشلين مع مرتبة الشرف، وكنت أقطع علاقتي بأي شخص تسوّل له نفسه أن يصبح نظاميا، يَحسب للهمسة والحركة ألف حساب.

ذلك طبع لم أتطبع به بعد مرحلة البلوغ، بل منذ الطفولة، فكنت أختار المقعد الأخير في الصف لا لأنني الأطول بين التلاميذ، بل لآخذ راحتي في الدردشة مع الطُش الأخير في معدل الدرجات، ومع المجبورين على عتل شنطة

الكتب كحمل ثقيل أشبه بكوم حجارة، تماما كحمار يحمل أسفارا.

ورغم أنني كنت الأول في صفي طيلة فترة الدراسة لكنني كنت أمقت الأوائل ولا أصادقهم. لا يتوهمن أحد أن تميزي كان ناجما عن التنظيم والانضباط، بل عن الفوضى، إذ كنت أركز على بعض المواضيع التي ألحظ أن الاستاذ يتمتع بشرحها، ويفصّلها بدقة محببة، وأبتعد عن تلك التي يسلقها سلقا، لأنه أصلا لم يفهمها، وبالتالي لن يضع حولها أسئلة امتحانٍ لن يكون قادرا على تصحيحه. وقد نجحت خطتي بشكل دائم ومبهر.

زاد اقتناعي بحب الفوضى في المعهد الداخلي، فصادقت أروع الفاشلين المدخنين، الذين لازموني في حضور جميع أفلام السينما، التي كانت تعرض في ثلاث دور سينما قريبة من المعهد، وكان يطيب لنا حضور فيلم سينمائي ليلة الجمعة وفي الليلة التي تسبق الامتحانات.

المرات التي قفزنا فيها عن ظهر حائط المعهد لا تعد ولا تحصى، والحركات الفوضوية التي كانت تثور في المعهد كنت المبرمج الأبرز لها، وحتى عندما طلّقت المعهد وهربت ملتحقا بالفدائيين كان الدافع الأساس لا علاقة له بفلسطين، بل التخلص من سجن كريه مقيت اسمه معهد. وحتى حين طُردت من التدريب كان السبب كما أخبرني قائد المعسكر " لأنك فوضوي تُكثر من الأسئلة المحرجة."

هكذا بقيت الوجه الآخر لعملة ذهبية اسمها فوضى، في الجامعة، وفي الحياة الزوجية وفي الأعمال الفاشلة التي مارستها، وحتى في قراءاتي، إذ لم أحشر نفسي في خزانة كتب محددة كالأدب مثلا، بل كنت فأرا نهما، اتنقل بين جميع المواضيع، وأبحث بسراج وفتيل عن أي كتاب

يهينه وينتقده رجال الدين، الذين كانوا يدرسوننا العلم النافع بحسب ادعائهم، وكنت أحب هذه العلوم التي وجدتها غير نافعة بشكل مؤكد، والدليل أنها فرّخت لنا الفوضى الدينية الجميلة التي نتقلب في نعيمها اليوم. فسارعت إلى اقتناء كتاب (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي، و(في الشعر الجاهلي) لطه حسين ولم أتجاوز السادسة عشرة من عمري، كتابان رائعان بعثرا أفكاري وعصفا بها عصفا فوضويا فعالا، أشكرهما عليه، فلمست الفوضى والاختلاف المطلوبَين في القرآن(ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم).

تخيلوا مثلا أن يكون الناس كلهم جميعا متفقين في الدين والمذهب أو في السياسة والعدل والنظام !! منظر مرعب لحياة روتينية قاتلة، تؤدي إلى الانتحار.

كرهت حياتي يوم زرت السويد قبل 13 عاما. روبوتات متحركة تتنقل ببطء قاتل، جدية الملامح، يجلسون - قاتلهم الله - في الحافلة وعددهم مساوٍ لعدد المقاعد، لا دردشة ولا زعيق ولا خصام ولا جدالٍ ولا تنكيت ولا احتكاك، ولذا عشقت القاهرة.

****

الخطأ المتنامي:

يكفي أن تتابع اليوتيوب والفيسبوك لتدرك مدى الكارثة الفكرية التي تحل بأصحاب الديانات السماوية الثلاث.

تنويريون يدعون أنهم يقدمون خطابا دينيا معاصرا يُنقّي التراث مما علق به من فهم خاطئ، وتفسير مغلوط للكتب الدينية، فيهب الراديكاليون المتعصبون للموروث، للدفاع عنه، وهم يرتجفون رعبا من تحطم الدين وزواله.

في الجانب الآخر تُعقد مناظرات لا حصر لها بين منتقد هادم للدين الإسلامي كالأخ رشيد مثلا وعدد من رجال الدين المسلمين، ويزغرد الأخ رشيد لعدد المسلمين الذين استمعوا إليه، وتركوا دينهم متجهين خلفا دُر نحو اعتناق المسيحية، تماما كما يفرح المسلمون وهم يتابعون أشخاصا تقدميين وعائلات بسيطة مغمورة يتحولون نحو الإسلام.

السؤال هنا: كم عدد هؤلاء وأولئك، وما هي نسبتهم من مجموع أتباع الدينين في العالم؟ وما هو تأثيرهم على كلا الدينين؟ أي ما النتيجة الحاسمة لهذا التحول على أرض الواقع ؟

الجواب لا شيء.

منذ فجر الإسلام لم تتوقف المناظرات والدراسات المتلاطمة بين السلفيين وأهل الرأي، وبين الفلاسفة والمتكلمين من جهة، والمحافظين المتزمتين من جهة أخرى، فما هو انعكاس ذلك على واقع المسلمين اليوم؟

لقد أكل العث تلك الدراسات، وانقرض صوت المتناظرين مع فكرهم، واختُزل المشهد اليوم بملايين المتدينين الذين لا يعرفون أي شيء عما دار قبل قرون، من مشاحنات ومناظرات وانقسامات وتقسيمات مذهبية وحركية حزبية، وبتنا نرى متدينين بسطاء يعترفون بوجود الله واليوم الآخر ويؤدون الشعائر حسب ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ويعملون العمل الصالح، وهم يشكلون الأغلبية الساحقة العظمى.

مهما ازداد عدد المتنورين ومهما نشروا من دراسات وفيديوهات فإن الغالبية الساحقة من المسلمين ستظل على ما ورثته خوفا من بؤس المصير بعد الموت، واقتناعا بأن الجدود لم يكونوا معتوهين وهبلا حتى يعتنقوا هذه الأفكار دون تمحيص.

سمعت شيخا يعطي رأيه بالدكتور الراحل محمد شحرور فقال: لقد أضاع شحرور خمسين عاما من عمره هباء، فكم عدد الذين سيقتنعون بأفكاره ؟خمسون ألفا، مئة الف، مليون، مليونان ؟ فكم هي نسبتهم من عدد المسلمين المليار ونصف، وهم في ازدياد مستمر ؟؟

الثقة التي تحدث بها ذات وجهين:

وجه صحيح جدا من حيث العدد الذي سيزداد بالتوالد والتكاثر والتقليد الطبيعي، ووجه خطأ لأن عدم تجديد الخطاب الديني سيجعل المسلمين يدورون في حلقة مغلقة من التقليد للسابقين دون تدبر، وهو بالضبط ما جعل المشهد السوداوي مسيطرا على الدول الإسلامية، وما نبت فيها من تنظيمات مسلحة وحركات إسلام سياسي.

وبما أن كل هذه المناظرات والمشاحنات والانتقادات والتنويرات لن تغير في المشهد إلا بعض الرتوش الباهتة والتي لا ترى بالعين المجردة، فيجدر بنا عدم تضخيمها والمبالغة في فاعليتها وجدواها، والانصراف إلى إنتاج فكر جديد وعلوم جديدة تفيد البشرية، وإذا تساءل متسائل:وماذا نفعل بملايين رجال الدين والمتناظرين الغيورين ؟

الجواب: نخضعهم لدورات تدريبية على عمل منتج في المعامل والمزارع والجامعات ومختبرات البحث العلمي الخ.... يخدم الإنسان ويسعده، ونترك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وليعترف بعضنا ببعض ضمن المجتمع الإنساني الآيل إلى الانهيار، بسبب الازمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المتراكمة والتي تستدعي حلولا جذرية.

صرخة لعلها تصل !! وربما لن.

****

(أمة اقرأ لا تقرأ)

مقولة يتلاطم صداها من المحيط إلى الخليج، وكأنها تحولت إلى حقيقة يقينية لا تُناقَش.

يرددها المفكرون والمثقفون وأرباع المثقفين.

فهل هي صحيحة ؟

هل المقصود بالقراءة المطبوعات الورقية، أم الحكم ينسحب على ما يُنشر في الواقع الافتراضي عبر الانترنت؟

هل المقصود بالأمة هنا المسلمون كونهم أمة اقرأ، أم العرب تحديدا ؟ وهل المسلمون من غير العرب يشملهم هذا الوصف؟

لنفترض أن المقصود بالمقولة العرب تحديدا.

التعميم قطعا لا يجوز ـ كما سيبادر البعض مؤكدا ـ ولكن الاحصاءات الصادرة عن الأمم المتحدة، من حيث نسبة القراءة عند العرب قياسا بما هي عليه عند غيرهم، وما نشهده في معارض الكتب، وعدد الكتب التي تُصدرها دور النشر يعضد هذه المقولة، بأن الغالبية العظمى من العرب لا تقرأ.

إذن فالمرض حاصل، ولا يمكن وصف العلاج إلا بعد التشخيص.

لماذا لا يقرأ العرب ؟

****

الزمن الجميل.

ما قيمة حفلة لأم كلثوم بلا سعال بعض الحضور.

وما قيمة الراديو بدون دفء صوت فاروق شوشة في برنامج لغتنا الجميلة.

أو رنة صوت حسن الكرمي المحببة في برنامج قول على قول من إذاعة لندن.

وأي متعة لمتابعة ماتش كرة قدم لا ينفعل معه المبدع محمد لطيف.

وأي خشوع يوازي الخشوع المنبعث من صوت محمد رفعت مرفقا بخشخشة ذبذبات الراديو، المصمود على الرف ذي الغطاء المطرز.

وهل مصاحف اليوم تشبه المصاحف ذات الحجم الكبير المحفوظة ضمن بيت قماشي مطرز بعبارة(قرآن كريم) والمعلق على مسمار في الحائط ؟

وأي طرب يوازي طرب عبد الباسط عبد الصمد وهو يترنم ب (هيتلك) من سورة يوسف، يجودها بالقراءات السبع، أو انفعال المستمعين في المسجد واختلاط دعواتهم له بكلمة اللاااااااااه.

وقيل لي: ما قيمة حافلة مكتظة تنقلك من مصر الجديدة إلى ميدان رمسيس دون احتكاك الركاب ؟

تفاصيل صغيرة جدا ولكن فيها تكمن الذكريات كل الذكريات. لذا أجزم أنني مت يومذاك.

****

الطعام ← العقلية ← الإرهاب.

أزمة العقلية العربية لا تكمن في تقديس الماضي بدل الحاضر، ولا في تقديس رجال الدين قبل الدين، ولا في تضخيم الأنا والمبالغة في تعداد الإنجازات الوهمية والتغني بها، ولا في عشق العبودية للزعيم وأتباعه، ولا في تجهيز الزاد لما بعد الموت، وترك زاد الدنيا للغرب يكتشفه ويبيعه لنا الخ....

بل فيما يتناوله اليعربي من طعام، وفي الكميات العسرهضمية المتناولة، إذ ينعكس ذلك كله على نفسيته وعقليته وسلوكه وعمله وحياته الأسرية، فتراه يعقد اجتماعا مفتوحا مع العائلة في السهرة، وعلى جدول الأعمال بند خطير مصيري واحد: ماذا سنطبخ غدا ؟ سيبادر الأبناء والبنات بالإدلاء بآرائهم التي لن يُسمع منها أي رأي، وإذا تفوهت الزوجة باقتراح طبخة ما، فسيتجاهلها الزوج ويقاطع الأصوات المتداخلة بقرار نافذ لا رجعة فيه، حسب مزاجه هو، أليس هو من يتعب ويشقى كي يجلب لهم المال؟

أثناء وجوده في العمل سيرن هاتفه الجوال مرارا، فيبرم بوزه، ويسب زوجته التي ستهذب صوتها كي لا يقدح زعيق البعل طبلة أذنها: طلبتَ الغدا مقلوبة، وقد انتصف النهار، وين صارت اللحمة والبيتنجان؟

ـ قلت لك ميت ألف مرّة، مش فاضي عندي شغل، سأبعثهما لك دليفري، عمى شو بتنُـقّي !!

سيتأخر الغداء طبعا، وستسلقه المسكينة سلقا على عجَـل، وسيثور(ربّ) الأسرة ويتجهّم، ويزدرد اللقمة

تلو اللقمة بسرعة دون أن يتكلمَ، ثم فجأة تبدأ المشاحنة ورفع الصوت، والأولاد يطأطئون رؤوسهم نحو القصعة مستمعين إلى دروس مجانية تتكرر(كيف تُربي أبناءك؟)

هذا إذا كانت الطبخة مقلوبة تضم نوعا من اللحوم، فكيف يكون الحال إن كانت من موروثات القرون الوسطى، أو زمن الفقر المترامي، المتكئ على المجدرة والبرغل وحشائش الأرض، المقبول بعضها كالخبيزة والحمّيض والقُرّة والهندباء، والمرفوض بعضها بشريا كاللوف والعكوب (طعام الجِمال)؟ هنا ربما تشاهد في فضاء الغرفة صحونا طائرة، وعيونا فائرة، وزوجة على البلاء صابرة، وجارة تطلب الستر والآخرة.

يؤكد العلماء ـ ولا تسألوني من هم العلماء ـ أن سلوك الإنسان يتأثر بما يأكل من لحوم، فإذا أكلتَ الأرنب صرت جبانا، وإن أكلت لحم الجمل صرت صبورا عنيدا حقودا، وإن تناولت لحم الماعز صرت شيطانا كثير الحركة فوضويا، لذا حرّم الدين لحم الخنزير (قال لانه بلا شرف ولا يغار على عرضه وخنزورته، وهذا سبب انحلال الغرب خلقيا) لذا ترك معظم العرب هذه اللحوم المسيئة للشخصية المتزنة، واكتفوا بلحم البقر والغنم الوديع المسالم الذي يقوده كلب واحد.

لو تتبعنا مأكولات شرق الوطن العربي وغربه لوجدناها متخمة بقائمة طوييييلة من الدهون المشبعة وغير المشبعة، واللحوم المتربعة على قمة المنسف العامر، وأكلات اسمها يثير الرعب والقشعريرة والإحجام في نفس السامع، ويجعل العربي جبانا حذِرا متوجسا من كل شيء، كثير الشك، قليل التعلق بالدنيا، طامعا بأكلات الجنّـة التي لا بد أن تكون مهذبة ورقيقة على السمع

كالهمبرغر والسباغيتي وكوردون بلو وأليبولو وحلوى(ليالي لبنان)مثلا.

وهاكم قائمة ببعض الأكلات العربية الخارقة الحارقة المتفجرة، المتسببة بالمرض وحِدّة الطبع وزفارة اللسان والطلاق وتعدد الزوجات، والارتداد عن الدين، وذلك على سبيل المثال لا الحصر:

طباخ روحو /حرّاق إصبعو/ رصاص عزرايين/زُطّة/مجدّرة /كُشري/كروش (ويدلعها البعض غَمّة)مفتّقة/ مدلوقة/سدّ الحنك/ بصارة /مسقّعة/مدفون /مفطّح/الرشوف/الجباب /ولد الولد/ الشلولو/الويكا /الدسّ/مفشش في حجر أمه/الزعلوكة/القاضي وجماعته/البسطيلة /.جظ مظ.

فهل تتساءل بعد كل ما تقدم من أين ينبع الإرهاب ؟

****

السكوت من ذهب.

كان عمري ستة عشر عاما حين ذهبت لسماع محاضرة سياسية حول الوحدة العربية، وبعد أن صال المُحاضر وجال في تعريف الوحدة وأشكالها، ومقوماتها وأهميتها ونتائجها، ابتسَم مفسحا المجال للأسئلة، ولأنني كنت مولعا بسماع الأخبار منذ الصغر فقد علمت أن حزب البعث العربي الاشتراكي كان حاكما في الجارتين سوريا والعراق، فكتبت سؤالي على قصاصة ورق دون ذكر اسمي، وأعطيتها لجامع القصاصات. كانت الأسئلة مريحة جدا للمحاضر لأنها متماهية مع أفكار المحاضرة. فجأة تغير لونه وهو يتمعن في قصاصتي، جامعا عينيه، ثم رسم على وجهه ابتسامة صفراء متسائلا:

"وردني سؤال جريء جدا من إنسان مثقف ومتابع لما يدور في وطننا العربي الكبير، لكنه لم يذكر اسمه، وهذا مخيب للآمال، فالخوف لا مكان له في حياتنا، ولن تنهض أمة ترتعب لمجرد طرح سؤال منطقي".

سأتلو السؤال وأطلب من السائل الكريم أن يقف ليعرفنا عن نفسه:

ما دامت الوحدة العربية بهذه الفائدة وتنطلق من عوامل ومقومات متوافرة في سوريا والعراق ويحكم البلدين الحزبُ ذاته، فلماذا لا يتوحد البلدان كنموذج لباقي الأقطار العربية؟

صفق الجمهور طويلا وساد الهرج واختلطت الأصوات مستملحة السؤال، ثم تلاطمت الأنظار بحثا عن شخص يقف كشاهد القبر معلنا أنه هو السائل.

تجاهلتُ إلحاح المحاضر وتطميناته ـ ليس بداعي الخجل الشبابي فقط ـ بل تحسبا مما لا تُحمد عقباه. فاضطر المُحاضِر للإجابة المقتضبة العائمة كزبد البحر:

الجواب يستدعي محاضرة منفصلة لأن الأسباب كثيرة والتفاصيل أكثر، ولا يتسع المقام للخوض فيها.

كدت أتجاسر وأستأسد فأعلق:

أخبرنا بالجواب ولو بجملتين موجزتين، لكن النظارات السوداء التي راحت تراقب الحركات والسكنات جعلتني أصفق مع المصفقين وأنسحب مع المنسحبين.

لم يقتنعني الجواب طبعا، ولم يقتنع الجمهور المحتشد، ولكننا جميعا كنا متأكدين أن العصفورة ستخبر الأستاذ عمن سأل.

****

أنا وبس والباقي خس.

سألني أحدهم: كم عدد المذاهب الإسلامية في العالم ؟

أجبته بسؤال: كم عدد المسلمين في العالم ؟

قال: مليار ونصف تقريبا.

قلت إذن فعدد المذاهب كذلك.

كل فرد له فهمه الخاص لعقائد الدين، وطريقته الخاصة في تأدية العبادات، ووجهة نظره الشخصية حول ما هو حلال وما هو حرام، وعادة يتم التحليل بحسب مشاعر المرء وأهوائه وما يراه حقا أكيدا من حقوقه.

حتى الذين ينضمون تحت لواء جماعة إسلامية معينة يشملهم هذا التوصيف.

كذلك الأمر في الأدب والفن، فلكل شاعر وقاص فهمه الخاص للإبداع وللشروط الفنية المتعلقة بما يكتب، لذا تراه يغضب وتنتفخ أوداجه إذا انتقده ناقد، ويروح ينزوي في صومعة إبداعه الشخصي منتجا عددا لا يحصى من نصوص مكرورة طبق الأصل، وكأنه صار صاحب مدرسة متفردة.

عند هذا الحد المشكلة محلولة، ولكنها تصبح عويصة حين يتخذ هذا الجهبذ طقوسا خاصة في الكتابة، ثم يتخيل أن جميع الكتاب يجب أن ينسجوا على منواله، فيجلسوا في الحديقة العامة او في مقهى بحيرة البجع، وأمامهم فنجان قهوة ذو بخار يتصاعد، محاط بالزهور، كي ينزل عليهم الإلهام الكتابي وشيطان الشعر.

وتتعاظم أناه العليا، فيروح يحدد للكُتاب أسلوب الكتابة الأهم، بل والأنواع الأدبية التي عليهم الكتابة فيها دون سواها، لأنها هي الأنفع والأبدع، ويحدد لهم كذلك عدد مرات النشر أسبوعيا، أو سنويا، محتجا على تنويع منشوراتهم، إذ لا يليق ببرستيج الأديب ان ينشر نكتة أو طرفة، أو حادثة شخصية تستدر الضحك، فتخفيف الدم يذهب بالوقار، لأن رسم البسمة على وجه الأصدقاء والقراء المتعبين في الأرض من مهام الكوميديان والمهرج فقط، أما إذا أصابته لوثة الفيسبوك فعليه أن يحتاط أكثر فلا يضع اللايك ألا لمن يستحق الإعجاب، ولا يصبح أضحوكة وهو يوزع التعليقات هنا وهناك وهنالك، فهذه مضيعة للوقت والجهد، تدل على أنه عاطل عن العمل، لا شغل له ولا مشغلة، غير تصفح كتاب الوجه هذا، وما يضمه من غثاء ومنشورات سخيفة.

بعد كل هذا تراه يدافع عن حرية الغير، التي تنتهي عندها حريتك، ويتبجح في المجالس أنه منفتح على جميع الآداب والفنون والأفكار، ويستشهد (عطّال على بطّال) بشطر من بيت الشعر: وللناس فيما يعشقون مذاهب.

ثم يتحول بقدرة قادر إلى ناقد لامع، يقيس نصوص غيره بمقياسه الذي لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه. غير مبال باعتراض المعترضين، ولا بتعجب المتعجبين، كيف يفعل وقد أضحى هو القدوة والمثل؟

وتسألني بعد كل هذا: لماذا يتراجع الفن والأدب والدين والفكر والحياة والوطن ؟

****

الشورى.

يخطئ من يظن أن الشورى، والاعتراف بالرأي الآخر، وقبول المعارضة، ومناقشتها، مفاهيمُ سياسية حديثة، فقد تم ترسيخها وتطبيقها الفعلي قبل أن يخلق الله الإنسان كخليفة في الأرض.

فها هي الشورى تتمثل في استشارة الله عز وجل الملائكةَ، في جعل آدم خليفة في الأرض، والاستماع إلى رأيهم المدعّم بالحُجة، وإن كان قد رجّح رأيه وقراره المنطلق من كونه إلها يعلم ما لا يعلمون (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون...)

وها هو الرأي المخالف يتمثّل في إبليس الذي تزعم حزب المعارضة، ورفض الانصياع لأمر ربه، وقدّم له الدليل بحسب قناعته (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقتَه من طين).ولو كنت مكانه لأضفتُ حجة أقوى بأن الله أمرنا ألا نسجد لأحد سواه. ومع أن معارضة إبليس مسيئة تعمل ضد مصلحة البشر وضد خالقهم، فقد سمح الله لها بالعمل المستمر إلى يوم القيامة.

إذًا فالله لم يقمع المعارضين، إنما ترك إبليس يرفض ويجادل، لم يطلق عليه الرصاص ولم يغتله بسيارة مفخخة، بل تركه يُعلّم الأبالسة أتباعه ـ شياطين الإنس والجن ـ فنون الإغواء والتضليل كما يشاء، منذ بدء خلق الإنسان وحتى يوم القيامة.

حتى أن الله سيسمح له يوم الحساب أن يخطب خطبته الشهيرة والمكتوبة سلفا في سورة إبراهيم، مبررا فيها النهج الذي انتهجه، مُلقيا اللوم على من انصاع لغوايته، وأنه لم يكن له عليهم أي سلطان (وقال الشيطان لما قُضي الأمر إن الله وعدَكم وعد الحق، ووعدتُكم فأخلفتُكم، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرِخكم، ولا أنتم بمصرخيّ، إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم)

ثم تسمع من يقول بأن الديمقراطية مفهوم غربي مستورد دخيل على المسلمين.

****

التطنيش

لأنني من دعاة تطبيق النظريات المتعلقة بالمبادئ والمثل العليا، وعدم التغني بها، فقد قررت تطبيق مبدأ التطنيش (التجاهل والتغافل).

والتطنيش قديم قدم التاريخ الإنساني، ويدّعي الإخوة المصريون ـ كعادتهم في ادعاء نشوء الفلسفة والدين والأخلاق والتربية والتحنيط والكتابة والعلوم والفنون كافة والخطابة والملوخية والممبار والحلويات المتنوعة على أيدي أجدادهم ـ أن الكلمة قبطية أو فرعونية، مع أننا في بلاد الشام نستخدمها يوميا ونجعلها محور مثل شائع نُعلقه في المحلات والمؤسسات (طنّش تعِش تنتعش).

هنا يُطنبز ويغضب أهل بلاد الشام وتنتفخ أوداجهم، مؤكدين أن كل ما تقدم كان من ابتداع أجدادهم الكنعانيين، فيثور أهل العراق، ويُخرجون للطرفين الوثائق القديمة والألواح والمنحوتات السومرية، بما لا يدع للشك مجالا أن الحضارة انبثقت من بلاد الرافدين.

سأطنش هذه الادعاءات، وأدخل في صميم الموضوع:

كي تطنش أمرا ما لا بد أن يكون متعلقا بالحواس الخمس وبالأفكار المختزنة بواسطتها.

طنشتُ نشرات الأخبار منذ سنين طويلة، ولم يتغير شيء في حياتي، وطنشت قنوات التلفزيون كلها ما عدا الرياضية منها، ولم أتأثر سلبا.

طنشت معارض الكتب والنوادي والجمعيات الثقافية التي ترفع شعار الحياد بينما هي منحازة حتى النخاع.

طنشت النشرات الجوية واستخدمت مجساتي البدنية لمعرفة ما ينبغي لبسه من ثياب قبل الخروج من البيت.

وطنشت الأبراج وحظك اليوم وتوقعات ميشال حايك وسواه من أبواق الشؤم.

طنشت مشاكلي في العمل، والسوق، والبيت، فصرت لطيف المعشر، كريم المحتد ـ وما حدا يسألني شو يعني محتد ـ.

طنشت المساجد لا لتدني مؤشر الإيمان في قلبي كما تتوقعون بخبث ـ حاشا وكلا، والشر برا وبعيد ـ بل خوفا من الكورونا.

طنشت المطالعة مثلكم ومثلكن، إذ يكفي ما خزنته الذاكرة من معلومات لا ولن تهمّ أحدا.

طنشت القلم والورقة واكتفيت بالهاتف الذكي.

طنشت المَراجع واكتفيت ببرنامج الرجل الكافر اللعين غوغل ـ عليه من الله ما يستحق وما لا يستحق ـ

وطنشت ممارسة الرياضة التي لم أكن أزاول منها إلا بعض حركات سويدية كسولة وخجولة.

وطنشت كيس الأدوية الذي ما فتئ يرافقني في حلي وترحالي. لعل وعسى.

طنشت من يطنشني في الفيسبوك، ويروح ينشر وكأنه المعلم الأعظم والأوحد الذي يُقرأ ولا يَقرأ، ينتظر التعليقات واللايكات على منشوراته الملهِمة، ويعتبر نفسه أرفع من التعليق والتليك للغير.

طنشت تويتر لأنني لست من الشخصيات المرموقة، سياسيا، فنيا، جنسيا، ولا أتقن فن الطبخ وصنع الحلويات العربية والغربية.

طنشت قناتي على اليوتيوب لأن مواضيعي الفكرية والدينية التوعوية لم تستقطب إلا نفرا قليلا، وأحلف صادقا غير حانث أنهم كانوا يضعون لايك تحتها ثم يرحلون إلى ما يعنيهم، والسبب معروف:الجميع واعون ولديهم فلسفتهم الخاصة وقناعاتهم الراسخة في العلم والفكر والدين والفن والسياسة والأعشاب والطبخ والتربية وما وراء الثقوب السوداء، وما قبل نشوء الكون وما بعد نهايته.

ستبرمون بوزكم وتقلبون شفاهكم هازئين:

وماذا بقي من الحياة لم تطنشه ؟

طبعا بقي.

1- أولادي وأحفادي وأصدقاء افتراضيون صاروا واقعيين، أكتب لهم ويكتبون لي.

2- ملك الموت الذي أراه يتربص بي عند المفارق وبعد إلقاء رأسي على الوسادة، وكلما ابتهج مواطن عنتري بالرصاص والقذائف الصاروخية لمناسبة خروج المجرم - ابنه أو أخيه أو قبضاي من قبيلته التي تؤويه - من السجن.

3 - قائمة طلبات منزلية مرهِقة تدسها زوجتي في رسالة واتسأب مكتوبة قبل أن أفتح جفني كل صباح، ما يجعلني أفكر يوميا وبشغف كبير في الاكتفاء برقم 1

****

وماذا إذا.

وماذا إذا انقطع البنزين ؟

أصُفّ السيارة أمام البيت، فإذا طاااالت الأزمة أبيعها إن وجدتُ من يشتري.

ثم أشتري دراجة هوائية، فأكتشفُ أن البواسير تمنعني من استخدامها، فأشتري حمارا. أفاجأ أنه بلا سرج، فأفتش بسراج وفتيل على مُعَمّر يهديني سبيل الرشاد لخياطة سرجٍ يليق.

لن أجد طبعا. مشكلة بسيطة وحلّها أبسط، أطوي حرام صوف وأضعه فوق ظهره.

طيب ماذا سأُطعم الحمار ؟

ستسارعون إلى تجهيلي، فالحمار يأكل القمح والشعير والخضار ويتلذذ بقشور البطيخ. لا داعي للحمار والدواب، فلنتركها للزينة حتى تموت. ولماذا الهبَل أيّة زينة يُنتجها حمار؟ فلنذبحها ونأكلها قبل أن تموت. الفقهاء النوابغ لم يُحرّموها كما حرّموا الخروج على الحاكم ولي الأمر (أدام الله ظلّه اللامع، وظِلكم التابع).

وماذا إذا انقطع المازوت والغاز، فكيف نطبخ الحمار ؟

أيضا محلولة:

أشتري فأسا وأنطلق صوب الغابة والتلال البعيدة أحتطب، ثم أجلس حول النار أتذكر العهود الخوالي والجدود الغوالي، أستمتع بالدفء وبرائحة الحطب يهسهس ويبسبس وأنا أدمج التبغ البلدي وأتفتف، ثم

أنتقي عودا مجمرا أشعل السيجارة به كما كان يفعل (يول براينر وجوليانو جيما) في صحراء فيلم الويسترن، قبل أن يتناول إبريق القهوة المطلي بالشحار صديق البيئة.

قال المثل (اللي عينك عليه عيون الناس كلها عليه) يعني سأقصد الغابة فأجد الشعب العنيد وجماهير الغضب قد سبقتني إليها، فلا أجد إلا الحصى والتراب. محبطا سأعود، أجُر أذيال الخيبة خاليا حتى من خُفّي حُنين، لم أجنِ إلا تعب حَمل الفاس ذهابا وإيابا، نحو الدار.

ماذا إذا وجدتُ الحمار قد سُرق وصغاري ينتظرونني كالمُخلّص (عليه وعليكم السلام) يتضورون جوعا وبردا ؟؟؟ !!! أيضا لا تتعبوا أنفسكم بالتفكير، الحل أبسط مما تتخيلون:

الفأس في يدي.

****

كرتون

هو الوصف الأمثل للعرب.

دول كرتونية يسهل تمزيقها، خرقها، حرقها، إعادة تدويرها، التخطيط عليها، فَرْدُها وضمها و(قد يكون لهم فيها مآرب أخرى....)

شعوب كرتونية الطباع والسلوك تتحرك على أنغام (توم أند جيري)، الكل في سباق و(خناق) كرّ وفرّ، مقالب بمقالب فلا تعرف الخاسر من الغالب.

الجميع مهزوم مأزوم مضحوك عليه، مغرر به، يشرب المقلب من هذا وذاك وذلك.

أمة كرتونية من طبقة واحدة بينما زعماؤها كرتون مُقوّى كثير الطبقات،كلما نزعت منه وجها وجدت تحته وجها آخر، مرة أملس ناعما ومرة متعرجا (زيك زاك)كي يتحمل نوازل الشعب ويردّ الصدمات.

بلاد بُنيتها التحتية كرتونية السمات (تُـتَشتش) سريعا،وسريعا تتحول إلى عوائق.

مجارٍ آسنة تطوف، وأنابيب مياه تنفجر صيفا وشتاء ربيعا وخريفا فقط.

بالحرارة تتمدد وتعوَجّ وبالبرودة تتجمد وتفقع.

تزورها عاصفة عادية فتصبح الشوارع أنهارا والبيوت مسابح.

فإذا ما العاصفة اشتدت سموها تسمية الأنثى (كارلا /اليكسا/ ميريام / ولماذا ليست نظيرة مثلا ؟)

معها ترحل الكهرباء وتتهاوى أبراج التوتر العالي والواطي وتعلن الهواتف وشبكات الانترنت إضرابا عاما يَسجن الناس في منازل أشبه بزنزانات موحشة رطبة.

مدارسنا تربيتها كرتونية وجامعاتنا شهاداتها كرتونية يحملها المتخرج بعد أن يلبس برنوس التخرج وطربوشا أسود مربعا ويمشي كراهب مهذب وقور على وقع سمفونية (دخول الجنة)،ثم يعلق الكرتونة في صدر الصالون مع بسمة مؤقتة سرعان ما تنقلب إلى كشرة عاطلة عن العمل.

زواجنا أقل كرتنةً إذ نكتفي بورقة رقيقة هشة اسمها عقد زواج، ينشئ أسرة كرتونية سريعا ما تتمزق ويتفرق شملها لأتفه الأسباب، فتغدو المجتمعات كرتونية أيضا.

والجيوش ـ وأعوذ بالله من كلمة جيوشـ كراتين ضخمة فارغة المحتوى كالطبل المربع، على وجهها يتربع أسد هِزَبر هصور كاسر وعلى قفاها أرنب.

أمّة من كرتون !! فلا تعجب إن اخترقها الرصاص وهي أصلا بالماء تزول.

****

تجارب.

حقيقة أنا مبسوط وفرحان (ما تشوفو إلا الفرح) رغم ما نعانيه(ما ع قلبكم شر) من وباء الكورونا ومتحولاته المتزحلقة (ما تتزحلقو على جليد متل ما اتزحلقت هذا الصباح). فرحان لأنني عايشت هذه المحنة الجديدة(ما تنمحنوا بشي) والتي لم نجربها من قبل. وجربت الوقوف في الطوابير (ما توقفوا بطابور إلا يوم القيامة) طوابير الخبز والغاز والبنزين والمازوت والرز والسكر والزيت وووو) وسعدت كثيرا بمشاهدة حلقات الملاكمة والمباطحة بسبب تخطّي الدَور، واستمتعت جدا بسماع التشقيعات واستحضار الأخوات والأمهات (حفظ الله أمهاتكم من كل تشقيع) وخاصة تلك الجديدة على سمعي (يا أخو الدَقرة) كل هذا لم أمر به من قبل، رغم أنني ذقت ويلات الفقر الشديد في طفولتي وشبابي، وعشت ويلات حرب ال 67 والحرب الأهلية في لبنان، ونجوت من الموت بأعجوبة ثلاث مرات، وعشت حرب 96 و2006 ومع كل تلك الحروب لم تنقطع المواد التموينية انقطاعا تاما ولا ارتفعت الأسعار كما هي اليوم.

لهذا فالتجربة الحالية مهمة جدا لاختزان المَشاهد وهي المادة الخام للكتابة.

فرحٌ آخر يغمر كياني لأنني نلت لقب حاج وحُشرت مع فئة(الختايرة) بسبب بياض شعري (بَيّض الله وجهكم وقفاكم) وهذا يعني اقتراب موعد الرحيل (طوّل الله أعماركم) فعلى الأقل لن أعايش مزيدا من الويلات القادمة.

****

رأيي وفقط.

يصدمني التناقض في شخصية معظم الكتّاب المشهورين والأدباء والمفكرين اللامعين أو الملمّعين:

يقرأ في حياته مئات الكتب والمراجع وحيدا منعزلا فيختط لنفسه وجهة نظر محددة لا تقبل التراجع ولا حتى النقاش، ثم يبدأ في تسطير الكتب والدراسات المتمحورة حول نظريته الخاصة أو ربما المؤيدة لنظرية تراثية سابقة وقد تصل مؤلفاته إلى 70 مؤلفا.

هو يعلم علم اليقين أن النشر الورقي في زمن النت صار بدون جدوى، اللهم إلا من أجل التوثيق، لذا تراه يهرع إلى اليوتيوب والفيسبوك لنشر فكره وحيدا منعزلا أيضا، فينشئ صفحة خاصة، يُغرقها يوميا بعدة منشورات، يتلقى عليها اللايكات والتعليقات، دون أن يكلف نفسه عناء الرد على التعليقات، وبعضهم يتواضع قليلا فيضع لايك مجاملة.

السؤال هنا:

بماذا يختلف هذا الكاتب التنويري عن رجل الدين المتعصب لفكره الموروث، طالما أنه يجزم بصواب فكرته غير القابلة للنقاش؟

كلاهما يدعي أنه ملك الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

المتعصب الديني يجزم بأنه متحرر فكريا ويقبل الرأي الآخر وهو مستعد لمناقشته، ولكن إذا ناقشته تجده يرغي ويزبد، ويشخصن النقاش، متهما إياك بالجهل

والتخلف، والمروق من الدين، وحسنا يفعل لأنه يتجاوب ويناقش وإن كان يفضح فكره من حيث لا يدري، ولكن هذا غير مقبول من الكاتب الذي يصنف نفسه في خانة التنوير والإصلاح والتغيير، لأنه حين يصف المتعصبين دينيا بالهبل والجهل والغباء والتقليد الأعمى فإنه يفعل فعلهم ويلبس ثوبهم وينطق بلسانهم.

كفار قريش حملوا السيف في وجه فكرة النبوة والتوحيد، وكذلك يفعل المتعصبون دينيا اليوم في وجه من ينتقد الافكار الدينية، وكذلك يفعل المتنورون حاملو لواء التصحيح والتربية.

إن شتم الرموز الدينية وشتم المؤمنين بها ينتج نتيجة عكسية تجعل المؤمنين أشد تمسكا بأفكارهم الموروثة دون النظر إلى الآراء التي تنتقدها بحجة التنقية والغربلة والتصحيح. فيذهب جهدهم مع الريح دون فائدة ترجى.

تربية المجتمع مثل تربية الطفل لا يجدي معها العنف اللفظي ولا الفعلي ولن ينفع معها إلا الإقناع الواعي بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وبعدم إهمال الرأي المخالف والتعالي عليه والنظر إليه من برج عاجي.

قال لي صديق تنويري إن النقاش معهم لن يفيد وهو مضيعة للوقت، فقلت له: وهكذا بالضبط يقول المتعصبون دينيا، إذن سيظل كل طرف ينشر ولا يناقش وينطبق عليهما المثل القائل: مطرحك يا واقف.

أو كأنك يابوزيد ما غزيت.

****

هل سينتهي الإسلام عام 2047 ؟

هذا ما ذكره المتنبئ(سامي الديب)نقلا عن وثيقة صادرة عن القديس شربل المتوفى في لبنان عام 1898م

وسواء أصحّت نسبة الوثيقة إلى القديس أم لم تصح، يظل السؤال الأساسي: هل يمكن لأي دين أن ينتهي؟

إن نظرة بسيطة إلى تاريخ الأديان تظهر لنا أن الأديان السماوية ـ على الأقل ـ باقية منذ نشوئها وإلى اليوم،

وقد مرت جميعها بفترات مدّ وجزر، وتعرضت لانتكاسات وانتصارات متنوعة، بدأت واحدة موحدة، وسرعات ما انقسمت إلى فِرق ومذاهب، متنافرة متكافرة، وتعرضت للنقد والتجريح من المخالفين والمؤيدين، والمتدينين والملحدين على حدٍ سواء، وألفت فيها آلاف المراجع والكتب المتضادة، ولكن التاريخ يخبرنا ـ ويصدقه الواقع الحالي ـ بأن جوهر الدين باقٍ وأن أتباعه الرديكاليين في ازدياد وتطور بالتوالد والتوارث التقليدي حينا، وبالدعوة والتبشير حينا آخر، وقد ساهمت وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي في السماح للجميع بنشر أفكارهم، ولم تكن حكرا على الملحدين رافضي فكرة الدين من أساسها، بل استثمرها المتدينون أيضا للدفاع عن معتقداتهم وشرائعهم.

أيضا الملحدون يدّعون أنهم سيزدادون عددا وأن المستقبل المشرق سيكون لأتباعهم، نظرا لتطور العلم والتكنولوجيا وعلوم الإنسان، وأن الناس لن يكونوا بحاجة إلى الدين بالقدر الذي كان الأجداد يحتاجون إليه

كونه قدم لهم الأجوبة عن تساؤلاتهم المحيرة حول الله والكون والحياة والإنسان، والتي يتكفل العلم اليوم بمحاولة الإجابة عنها.

وبما أن مقالي بدأ بالحديث عن الإسلام فسأحصر الحديث به، وهو ينطبق على الأديان كافة نظرا لتشابه الظروف والوقائع التاريخية التي مرت بها.

حاليا يختلف التنويريون في أسمائهم ومناهجهم المنشورة:

البعض قدم مشروعا نهضويا لتجديد الخطاب الديني وتحليل أسباب تراجع الامة الإسلامية حضاريا وذكر الحلول المتاحة كالجابري وأركون ومالك بن نبي وقبلهم بعقود رواد النهضة العربية.

البعض ادّعى تنقية الدين الموروث مما علق به، مما ليس منه، فرفض الحديث النبوي والسنّة النبوية القولية واكتفى بالسنة العملية المتوارثة بالتقليد، كالدكتور محمد شحرور، وراح يفسر القرآن حسب منهجه الخاص.

القرآنيون أيضا رفضوا الحديث والسنّة واكتفوا بما ورد في كتاب الله الذي يفسر بعضه بعضا، وهو ليس بحاجة إلى التفسير من أحد، طالما أن النبي عليه السلام لم يفسره.

عدنان ابراهيم والكيالي حاولا تصفية الدين مما يثير الاعتراض عليه واهتموا بقضية الإعجاز العلمي، ورفضوا من السيرة النبوية والحديث النبوي ما يتعارض مع القرآن والعقل.

أحمد القبانجي اختط لنفسه فهما آخر للدين يقوم على اعتماد مذهب العرفاء الصوفيين أصحاب فكرة وحدة الوجود ورفض فكرة النبوة والرسالة والجنة والنار.

الملحدون لم يكتفوا بالإلحاد والوقوف على الحياد، بل راحوا يهدمون الأديان كلها، ويقدمون ما يرونه أدلة دامغة على أنها جميعا بشرية المنشأ، إذ لا وجود للإله.

كل ما تقدم هو علي سبيل المثال لا الحصر فهناك كتّاب ومفكرون معاصرون وتيارات أخرى أدلت بدلوها في الأديان كافة.

هنا يبرز سؤال جوهري:

هل هذا المشهد جديد وعصري لم يسبق للإسلام أن شهد مثيلا له ؟

التاريخ يؤكد لنا أن الفرق الإسلامية بدأت في الظهور في عهد الخليفة علي بن أبي طالب وكان الخوارج أول الفرق وتبعهم الشيعة والمعتزلة والجبرية والأشاعرة والماتريدية والسلفية الظاهرية والمرجئة والقدرية والمتصوفة،والفرق الباطنية كالدروز والاسماعيليين وسواهم، وكان الملاحدة موجودين جنبا إلى جنب مع جميع هذه الفرق، وثارت نقاشات حادة، وكُفّر من كفّر، وقُتل من قُتل واندثر من الفرق ما اندثر كالمرجئة،والجبرية والقدرية والمعتزلة ولم يبق منهم إلا الأفكار والمؤلفات الصفراء، وبقي الإسلام بتنوعه وفرقه الأساسية التي تتشابه في العقيدة والعبادات وتختلف فقهيا وسياسيا كالسنة والشيعة والأباضية والزيدية والمتصوفة، وبقيت الفرق الباطنية بأعداد محدودة.

إذن سيبقى الإسلام على هذا الحال إلى يوم القيامة وهكذا سائر الأديان، وستظل الأقلام تكتب معه أو ضده ويظل

جوهره وعموده الفقري صامدا وهو الإيمان بوجود الله وصفاته الكاملة، ووحدانيته، والإيمان بالغيب وبالرسل وبالعبادات وبالعمل الصالح، مهما تطور العلم وكثرت الأقلام والدراسات الناقدة له لأن قوته ليست في جوهره فقط، بل في تناسل أتباعه وازدياد عددهم بالتقليد وبالدعوة على حد سواء.

****

أنا حسود.

لا حسد إلا في اثنتين العلم والمال، كما ورد في الحديث الشريف.

وتعريف الحسد أنه تمني زوال النعمة عن المحسود، وهذا تعريف خاطئ، إذ الناس يتمنون ما عند غيرهم من نعم، بِنَهم وعمق نفسي ورغبة جامحة، ولكنهم لا يتمنون زوالها عنهم. بهذا المعنى فالكل يحسد بنسب متفاوتة.

المؤمن يدلّع هذا النوع من الحسد (غبطة) يروح يخبرك بأنه يغبط فلانا على صبره وشدة تحمله المرض أو الأذى أو الظلم أو عقوق الوالدين أو نشوز الزوجة أو....

أعترف أنني حسود ولكن في غير المال والعلم:

أحسد ذاك الذي لمجرد أن يضع رأسه على الوسادة، ثم يتململ للحظة واحدة حتى يروح يشخر في سبات عميق، بينما حين أضع رأسي على الوسادة تندلق الأفكار دفعة واحدة، وتختلط خطوط الطول والعرض في ذاكرتي، فيحضر الرحمن والشيطان، زوجتي ورب العمل، الظالمون والفاسدون والأتقياء النادرون.

أجرب الوصية بالنوم على الجنب الأيمن فتندلق عصارة معدتي الحمضية المزعجة صاعدة إلى الحلق، فأسارع إلى تطبيق وصية طبية بالنوم على الجانب الأيسر عند الشعور بالحموضة، فيتضايق قلبي وتتسارع دقاته.

أُقنع نفسي بأن موعد نومي لم يحن بعد، فأشعل النور وأجلس في سريري فاتحا الفيسبوك، فأذا به من اللخبطة والإزعاج والتأفف واليأس وأوراق النعي والأدعية المكتوبة والتقوى المنشورة ما فيه، فأغلقه بِنَزق وأفتح فيديو مضحكا لمشهد مسرحي طالما أضحكني، فأبتسم لمشاهدته، مسترجعا ذكريات ذاك الزمن الجميل. بعد الضحك أؤكد لنفسي أن لحظة النوم قد حانت، فأسترخي مذبلا جفوني، مرددا آية الكرسي وسورة تبارك، التي ما إن أقرأ (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا..)حتى أشعر بالرعب من احتمال الموت هذه الليلة إذا أطبقت جفوني، عندها أفتح جمجمتي وأنزع الدبابيس الفكرية واحدا تلو الآخر فأشعر بلذة التخلص من ذاكرتي التي تهزني مبتسمة:

اقترب موعد أذان الفجر، (مش محرزة تنام وترجع تصحى) بعد الصلاة يتكرر سيناريو الاختلاط الفكري فأهرع إلى حبة منوم، تغيبني عن الصحو لساعات قليلة، تعيدني بعدها زمامير الحياة إلى ضوضائها وتناقضاتها، كقنبلة صوتية تختزنها الذاكرة كي تفجرها في خِلقتي قبل لحظة النوم الآتي... ربما.

****

الدنيا بين الممر والمَقر.

إبنِ الدنيا ولا تتعلق بها، واعتبرها كما تشاء، حتى ولو لم تساوِ بنظرك جناح بعوضة.

حقّق الخلافة في الأرض ببنائها وتطويرها علميا وتكنولوجيا واجتماعيا وأخلاقيا وروحيا ولا تتعلق بها، واجعلها ممرا لا مقرا.

طالب بتحقيق الحرية والديمقراطية والسعادة للبشر والمجتمع ثم طلق الدنيا ثلاثا أو ثلاثمئة مرة، وخاطبها بالفم الملآن: غُرّي غيري.

أما أن تتقاعس عن البناء والتطوير وتقعد عن الإصلاح والتغيير، وتقنع بأداء الشعائر التعبدية، مُهملا الشعائر التعاملية السلوكية الأخلاقية، وتمشي مع القطيع والتيار مطبّلا للفاسدين والمخربين ثم ترفع شعار:الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر، فهذا إيمان العجائز العاجزين الذي يُخدر ولا يُعمّر، ويُرضي الخانع القانع المعتر، ولا يُرضي مَن جعله خليفة في الأرض.

****

جلد الذات

كلما انتقد كاتب ما وضع العرب والمسلمين، تنهال عليه التعليقات متهمة إياه بجلد الذات وبالتشاؤم وبتيئيس الناس وتحطيم معنويات الخيرين في هاتين الأمتين، وبعدم ذكر الحلول الناجعة والاكتفاء بتوصيف الواقع.

هناك نقطة مهمة وبدهية تغيب عن هؤلاء المعترضين وهي أن إصلاح البناء الآيل للانهيار لا يتم بطليه وتزويقه بلوحات تشكيلية تغطي الشقوق وقشرة الباطون المتخلعة عن الجدران والسقوف، بل بتحديد الأماكن المحتاجة إلى الترميم والإصلاح بدقة، ووضع مخطط عملي مدروس لهذا المشروع.

هذه الأمور الإصلاحية عادة تكون عكس الخلل المحدد، ولا تحتاج إلى أن يذكرها الكاتب فهي من البداهة والبساطة بحيث يغدو ذكرها تكرارا وتطويلا وحشوا زائدا:

فإذا قلنا أن أحد أسباب انهيار الأمتين العربية والإسلامية هو الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة فمن البدهي المطالبة بإصلاح هذه الأنظمةو بترسيخ الديمقراطية والقانون العادل الذي فوق الجميع.

وإذا قلنا أن السبب الثاني هو فشل المناهج التعليمية المعتمدة على التلقين وكبت الحوار والنقاش وسماع الرأي الآخر وعلى غياب التحليل والتركيب الخ.. فإن العكس هو المطلوب.

وإذا قلنا أن السبب الثالث هو غياب الاجتهاد الديني والتعامل مع العصر وقضاياه بفقه العصر العباسي،

والتهيب من ابتداع فقه عصري يناسب مراحل التطور، فمعنى ذلك أن العكس هو المطلوب.

وإذا قلنا أن السبب الرابع هو التمسك بالعقلية القبلية العشائرية الدكتاتورية الرافضة لفكر الآخر، والمفتخرة بأنها خير أمة أخرجت للناس فقط لأنها تؤمن بالدين الإسلامي كنظرية مجردة، دون أن ينعكس هذا الدين على الواقع أخلاقا وسلوكا وحضارة وتطورا، فإن العكس هو الحل.

ولكم أن تضيفوا أسبابا أخرى لما نعانيه وهي كثيرة.

****

الدين اليُسر.

لقد أنزل الله دينا واحدا للبشرية، لأن الواحد يستحيل أن يصدر عنه أديان مختلفة، وهو الإسلام بمعناه العام لا بمعناه الخاص الضيق كما احتكره اتباع سيدنا محمد عليه السلام بأنهم المقصودون حصرا بكلمة إسلام.

هذا هو معنى قوله تعالى" إن الدين عند الله الإسلام"

ووردت آيات تفيد بأن إبراهيم وموسى وعيسى ونوح ويوسف كلهم قرروا أن دينهم الإسلام ولا داعي لذكر هذه الآيات وقد أصبحت معروفة، بِغض النظر عن الخلافات العقائدية بين الأديان والمذاهب التي كان لكل منها تصوره الخاص حول جوهر الإله وطبيعته وصفاته، وهذا اختلاف طبيعي طالما أن الله وصف نفسه في القرآن بأنه" ليس كمثله شيء" وهو وصف يمنع الباحثين عن الخوض فيه نهائيا. وكذلك اختلافهم حول شكل الحياة الأخروية، طالما أنه غيب اختص الله بعلمه.

وهذا الإسلام العام اختصره القرآن بتكرار متكرر" إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات"وقرره مباشرة في قوله "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.... "

واختصره الحديث الشريف حين سئل النبي عن تعريف الإسلام فقال "قل آمنت بالله ثم استقم."

فالإيمان التسليمي البسيط بالله وبما أخبرنا به من غيوب والقيام بصالح الأعمال هو الإسلام العام الذي آمنت به جميع الأديان السماوية وهو الذي يؤمن به الناس

البسطاء وهم الغالبية العظمى، رغم تنوع الأنبياء الذين يؤمنون بهم.

****

الكاتب المبتدئ

عنوان يبدو مثيرا للتعاطف والشفقة، ولكن هل هو صحيح؟

هل هناك حقيقةً كاتب ـ يحمل لقب كاتب ويكون مبتدئا؟

وما المقصود بصفة (مبتدئ) حتى نتفق على صحة إطلاقها عليه؟

نؤمن بوجود تلميذ مبتدئ يتعلم بالتدريج والتراكم المعرفي، ونسلّم بوجود طبيب متخرج حديثا يحتاج إلى الخبرة العملية سنوات عديدة قبل ممارسة المهنة، وكذلك المهندس والمحامي والمهني والعامل الخ...

ولكن هل الكاتب كذلك؟

الكُتاب أنواع وسأحصر حديثي بكاتب الأدب:

نقرأ يوميا دعوات غاضبة،تطلب الرفق بالكاتب المبتدئ وعدم تيئيسه،وزرع الإحباط في نفسه،وتشجيعه بدل تحطيمه.

من المسلم به كي تحمل لقب أديب وكاتب أن تكون قد امتلكت الموهبة، وتمكنت من اللغة وأساليبها وآدابها وبلاغتها تمكنا تاما كاملا غير منقوص، يمنعك من التخبيص فيها والتخبط في فهمها فضلا عن تطبيقها في كتاباتك.

ولا بد من تحصيل المعرفة والثقافة الثرة التي تمكنك من ربط المعلومات وتحليلها كي تنتج للبشرية نصا متينا محكما من حيث التلاعب بالفكرة المألوفة وتناولها

بأسلوب مختلف مدهش جذاب يبعدها عن التكرار الممجوج لما سبق.

كما لا بد من إتقان الجنس الأدبي الذي ستكتب فيه والإلمام بشروطه الفنية، وقراءة الدراسات حوله، ومطالعة المئات من نماذجه،كي تتكون لديك ذائقة أدبية نقدية تستطيع من خلالها معرفة الجيد من الرديء والبديع من العادي الضعيف، كي تنسج نصا جديدا جيدا مدهشا.

حين يجد الناقد ـ أو الأديب المشهود له بالخبرة والإبداع في مجاله ـ كاتبا يجيد كل ما تقدم، ولكنه يتعثر قليلا، فإنه يأخذ بيده ويقيل عثرته مصححا له الخطأ، بشرط أن يكون متواضعا، يقبل النصح والإرشاد، فيسارع إلى التصحيح شاكرا معلمه، معترفا له بالفضل، لا أن يجادل ويماحك ويتعالم ويتشبث بالخطأ معتبرا أنه صار كاتبا وأديبا معصوما.

مثل هذا لا يعتبر كاتبا، ولن يكون كذلك، وسيظل يراوح مكانه، مع أخطائه وعثراته، ولا يجب الالتفات إليه وإضاعة الوقت معه.

أمثال هذا لا نسميه كاتبا مبتدئا، بل مدعيا مغرورا، يستسهل الأدب والكتابة، ويتخم المكتبات بمنشورات ورقية لا يقرأها أحد،ويملأ صفحات الفيسبوك بنصوص ركيكة لا تسمن ولا تغني من جوع.

****

خيرٌ باطنه شر.

من صور النفاق الاجتماعي جُمل تعلكها الألسن بصيغ تتنوع تنوّع اللهجات، واختلاف العادات والتقاليد.

يمُطّها المتكلم بصوت هادئ رزين، كي يقنعك أنه صادق لفظا ومعنى، شكلا وجوهرا، وأنت طبعا تصدقه بهزّة من رأسك علامة الموافقة مع أنك تقسم وتغلظ الأيمان أنه كاذب أو فلنُلطف الوصف وندلعه(مُجامل).

1- تذكر أمام محدثك اسم شخص متوفى ثم تردف قائلا: "ما بتجوز عليه غير الرحمة" فيفهم مباشرة أن المتوفى كان سيء الخلق والسلوك وغايةً في الشر، مكروها في مجتمعه. وهذه الجملة ينطبق عليها(كلمة حق أريد بها باطل).

2- تتجاذب مع صديقٍ سيرةَ أحد الخطائين غير التوابين، فيما ندلعه دردشة، وهو في حقيقته غِيبة موصوفة، ثم بعد صفحات من الحديث تقول (غفر الله لنا وله) بعد أن يكون الملاك الموكل بتسجيل السيئات قد كده التعب وهو يتأفف.

3 - تكون خارجا من دارك لقضاء مهمة عاجلة أو لأمر ضروري فتصادف صديقا أمام البيت فتعانقه وكأنه قادم من المهجر ثم(تُكرّك) تصر وتلح عليه مرارا قائلا:

(تفضل عليك جيرة، بشرفك تفضل نشرب فنجان قهوة أو تدعوه للغداء إن كان الوقت وقت غداء) وأنت تتمنى من أعماق أعماق قلبك أن يرفض دعوتك وينقلع.

4 ـ (تُشنكل) زوجتك متأبطا ذراعها مغادرين البيت في زيارة خاصة، فيفاجئك صديق سمج مع زوجته وهو يحث الخطى لزيارتكم دون موعد، فيروح يغلظ الأيمان(خلص كملوا مشواركم، منرجع مرة ثانية)فترد أنت بكامل الثقة (لا والله إلا تفوتوا، مشوارنا مش ضروري) بينما زوجتك تبرم بوزها وهي تقبل زوجةصديقك، وأنت تلعن سنسفيل أهله، وقد تشقّع له من الزنار وتحت.

5ـ يزورك صديق ـ هذه المرة مع موعد مسبق ـ مصطحبا زوجته ورتلا من أبنائه الظرفاء، الذين هم في عمر أولادك تقريبا، ويروح المحروس الصغير يشد الستارة بيدين غير طاهرتين تماما، فتنهره أمه بنعومة كي يتركها، لكن زوجتك تسارع إلى القول ـ معلش خليهن يلعبوا.. ولاد) مع هذا الموقف أجزم أنك وزوجتك قد ترتدان عن الدين بكلمات كفرية مكتومة.

6 ـ تكون جالسا مع الضيوف فيتسبب ابنهم المهضوم بكسر المزهرية الثمينة، فتبتسم ابتسامة كاذبة قائلا:"انكسر الشر " أو تدلق الضيفة الطانط النعّومة فنجان القهوة فتسارع أم عيالك قائلة "كب القهوة خير" ولم أسمع عن خير جاء بعد اندلاق القهوة على السجادة أبدا.

وغير هذا كثير مُثير مما تلمسون.

كلنا نسميها مجاملة ولكنها كلماتُ خيرٍ باطنها شر.

****

عزيزي السيد المسيح:

كل عام وأنت بخير.

عسى أن يكون العام القادم أجمل وأن تنزل إلينا سريعا، لأننا بحاجة إليك كي تفصل بين الأديان والمذاهب المتكافرة والقبائل الدينية المتناحرة، فوجودك بيننا أَجدى من بقائك وحيدا في السماء ـ ولا أدري ما معنى سماء ـ أو في كوكب صالح للحياة لم نكتشفه بعد. ونرجو أن تخبرنا عنه كي نهاجر إليه وإليك.

عسى ألا تكون جائعا مثلنا وأن يكون لديك المازوت والغاز للتدفئة، والكهرباء، نسيتُ الكهرباء، وما أنسانيها إلا الشيطان الذي تحررتَ من اختباراته الخبيثة.

إرجع إلينا فقد اشتقنا إليك. ألم تشتق لنا ؟

****

عيد ميلاد الأنبياء.

أطالب بالاحتفال بمولد سيدنا عيسى عليه السلام أسوة بالاحتفال بمولد النبي محمد عليه السلام، كما سأبحث عن موعد ميلاد الأنبياء الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن، وأحتفل بهم طالما أننا نعترف بنبوتهم جميعا، فما نرضاه لنبينا يجب أن نرضاه لباقي الأنبياء.

لذا علينا أن نقيم اليوم احتفالا لمناسبة ميلاد السيد المسيح خاصة وأن المسلمين كما النصارى يعتقدون جازمين أنه رُفع إلى السماء.

فكل عام وأنت بخير أيها النبي الفلسطيني المظلوم.

****

كرَم مع وقف التنفيذ

تتكرر في سلوكاتنا نحن العرب مواقف مضحكة طابعها المجاملة وجوهرها عكس مظهرها:

1- تشتري ساندويتش أو تُخرجها من حقيبتك في مكان العمل وتقول للموظفين معك:" تفضلوا " وأنت متأكد أنهم سيردون جميعا:" صحتين وعافية، شكرا".

ويصبح الأمر أكثر غرابة حين تقوم بشرب زجاجة عصير مثلا، فمن سيأخذها منك ويشرب قليلا ثم يعيدها إليك؟

قد تُقبل مثل هذه الضيافة الخنفشارية إذا كنت تحمل بزورات ومكسرات فيمد بعضهم يده داخل الكيس ويقبض قبضة، ولكن في مثال السندويتش والعصير وإصبع الشكولاتة والآيس كريم الملحوس يصعب ذلك.

يمكنك إن كنت صادقا في العزيمة والتضييف أن تخبرهم أنك ذاهب لشراء الطعام وستضيّف من يرغب منهم، وأجزم أنك ستسمع منهم كلمات الشكر والاعتذار، ولكن حين تشتري سندويتشا واحدا وتعود فلماذا يتوجب عليك أن تقول لهم: تفضلوا ؟

2- يقول لك الحلاق: " نعيما."فتمد يدك إليه بالنقود فيتراجع قليلا كالممسوس معتذرا:"خليها علينا" فترفض بشدة وتعطيه فيأخذ.

كنت عند الحلاق فدخل مختار الحي ليحلق ذقنه، فانبرى الحلاق مرحبا به وقال له "شو رأيك نغسل الشعر،فلم يتردد المختار وجلس فحلق له شعره وذقنه ونظّف

بشرته الخلابة وسَشْور له شعره فقام كعريس وسيم، وقال للحلاق: شو توجّب علينا ؟ فتراجع الحلاق قائلا: ولَو !! خليها علينا مختار.

فابتسم العريس قائلا:روح، الله يخليك لأهلك على هذه التربية الصالحة،وخرج.

ولنا أن نتوقع ردة فعل الحلاق المبعوص، وحجم الخازوق الذي تسبب فيه لنفسه، وعدد التشقيعات التي انهالت على أم المختار وأخته التي صارت سيئة السمعة.

مثل هذه المجاملات الفارغة نشهدها في محلات الملابس والأحذية ودكاكين البقالة وسيارات الأجرة إذا كنت تعرف السائق، فلماذا لا نراك تقولها لرب العمل إذا ناولك راتبك؟

3 ـ تذهب برفقة عائلتك ومعك الإخوة والأقارب والجاهة(لفيف من الإكليروس ذوي العمائم وكبار العائلة) لطلب يد عروس لإبنك المصون، وبعد التأهيل والترحيب الممطوط جدا، تنفخ نفسك كالبالون وتقول لوالد البنت:" أنا جَمل وأنت الحمّال". بمعنى أنك تفسح له المجال لتحديد المهر والطلبات، وستقبل بها مهما كثرت، بينما تخبئ في ذهنك رقما محددا لن تدفع أكثر منه قرشا واحدا لو تطربقت السماء على الأرض، ويروح الوالد يتلعثم ويردد كلمات الاعتذار وأن البنت بنتكم والولد إبننا، بينما هو في قرارة نفسه قد أمضى الليالي الطوال مع عائلته وربما قبيلته وهم يحددون المهر والطلبات.

سيبادر الكثيرون للدفاع عن هذه السلوكات بأنها مجاملات اجتماعية لا بد منها، بينما أرى أنها تلائمنا تماما لأننا بِحق أمة طق الحنك.

****

هذا ما حدث:

اتصل بي الصديق مفزوعا: خيرا إن شاء الله، يا أبا صحوة، عساك بخير؟ لم تنشر موضوعا منذ الصباح.

طمأنتُه: بخير بخير، لم تنفتح قريحتي حتى اللحظة، ولكن لماذا ناديتني بلقب، ألم تقرأ (ولا تنابزوا بالألقاب؟)

قال: لأنك عروبي ونحن أمة تعشق التنابز بالألقاب.

خذ مثلا ألقاب بعض شعراء الجاهلية (الشنفرى/ الأعشى/ السموأل / الحطيئة/ النابغة / الشريد/ الممزق العبدي....)

في عهد الصحابة

ابو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي

ابو ذر: جندب بن جنادة

أرطبون العرب: عمرو بن العاص.

الأحنف بن قيس: الضحاك أبو بحر السعدي التميمي.
الأخرَم: محرز بن نضلة الأسدي فارس رسول الله.

المطهر: عويم بن ساعدة..

صاحب العصابة الحمراء: أبو دجانة سماك بن خرشة.
خاقان: يحيى بن عبد الله بن زياد.

عيينة: حذيفة بن حصن الفزاري.

مسطح: عوف بن أثاثة بن عبَّاد

أشهر ألقاب التابعين:

سعدان: سعيد بن بشر الكابي.

سلمويه: سليمان بن صالح المروزي، سمع من ابن المبارك وروى البخاري له.

الأعرج: وهو عبد الرحمن بن سعد.

الأعمش: سليمان بن مهران أبو محمد الأسدي.

الأشج: خالد بن عبد الله بن محرز المازني.

البهني: عبد الله بن يسار مولى مصعب بن الزبير.
بحشل: أحمد بن عبد الرحمن بن وهب.

طاوس: كيسان بن أبي حنيفة.

طفيل: معتمر بن سليمان التيمي.

كردي: أحمد بن عبد الله بن الحكم.

ثم العشرات بعدهم

الجاحظ / ذو الرمة/ الأخطل / الفرزدق. المتنبي الخ...

وحتى يومنا هذا.

وعليك أن تحمد الله لأنني أطلقت عليك لقبا أجمل من لقبك الأساس أبو نعسة.

المهم، أين المقال ؟

****

فشّة خُلق

وهكذا تحوّلت مواقع التواصل إلى مناسبة لفَشّ الخُلق.

الملحد يفش خلقه فيهزأ بالمتدينين، والعكس صحيح.

العاطل عن العمل يفش خلقه لاعنا الجشعين، والعامل يفش خلقه برب العمل بأسلوب إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

المهنيون يفشون خلقهم متلاعبين بالصنعة انتقاما من الأوضاع المزرية.

الموظف العمومي ورجال الأمن يفشون خلقهم بالمراجعين تعبيرا عن سخطهم من كثرة العمل الذي هو في الحقيقة غير كثير.ورجال الجمارك يفشون خلقهم بالمسافرين تطبيقا للقانون المقدس المحترَم.

سائق الحافلة يفش خلقه فيجعل الركاب يتطوحون يمنة ويسرة، أماما وخلفا غير آبه بتعليقاتهم، منتظرا سماع شتيمة من أحدهم حتى يسمّر الباص بأرضه وينزل مرغيا مزبدا كي يفتعل معركة.

السائق الشاب يفش خلقه بالسيارة فيُشَفّط ويطلق الزمور وأغاني الهشّك بِشّك.

بائع الغاز والخضار والخردوات يفش خلقه بالميكروفون الموغل في التفاؤل الصباحي.

الكنّة تفش خلقها وتحرق سُلاف الحماة بالحِكم والأمثال الملغومة، والعكس صحيح.

الحلاق يفش خلقه برأس الزبون وذقنه فيخرج مزينا بنتف القطن.

الزوج والزوجة والأبناء والأحفاد ورجال الدين والدنيا، والمسؤولون كل يفش خلقه لسبب ما، فترى الفيسبوك لوحة تشكيلية متخمة بالسباب والشتائم والشكوى والتذمر وتوصيل الرسائل المرمزة من تحت لتحت.

واحد فقط لا يفش خلقه بأحد قد أكون أنا، وأعوذ بالله من كلمة أنا، ربما لأنني سعيد أو لأنني مفرط في التفاؤل كما تعلمون، أو لأنني كما وصفني صديق لدود (شيخ مودرن) ولكن إياكم أن تستفزوني فأسحب أمّان القنبلة.

****

ذئاب

لنتفق أولا أنك ولدتَ على الفطرة، بريئا، صفحة بيضاء.

ستفتح عينيك فتجد أخاك يتربص بك الدوائر، كيف لا؟ وقد استوليت على قلب والديكما والعائلة كلها، تدليلا وتلعيبا، هدايا وبسمات. ستحاول التمسك بممتلكاتك من الألعاب، فتجده يشدها من يدك غير عابئ بصراخك واستنجادك. هنا سيظهر لك نابان حادان صغيران، ولكنهما غير قادرين على تحصيل حقك.

في الروضة ستلتقي بأقرانٍ نبتَت لهم أنياب كأنيابك، والأقوى منكم عضًا ولكْما سيتغلب ويتزعم الفصل، هنا ستلمع عيناك بنظرات شريرة مكتومة حتى حين.

في المدرسة ستقسو الأنياب وتنبري طولا، وستنمو لك مخالب وعضلات قوية، تدافع بها عن نفسك بحسب شجاعتك، ولكنها ستكون منضبطة أمام أستاذ مقهور من زوجته أو أبيه وأمه وأخيه، وربما قبيلته التي تؤويه، يحابي ابن المدير ويتودد إليه على حسابك وحساب رفاقك متوسطي المصروف، فتكتم الحقد وحب الانتقام في خلاياك كلها.

تصبح شابا يكسو جسدك شعر كالإبر، تعيش حالة عشق، ينافسك فيها المراهقون، فتتضخم قدراتك القتالية باطحا فريستك بحرفية عالية.

تتخرج لابسا طربوشا مربعا، فوق روب أسود يخفي ملامحك الذئبية، إلى حينٍ تصبحُ فيه موظفا تحت يد ذئب أشرس، وأعظم سلطة منْ سلطتك، فتُخفي أنيابك ومخالبك قهرا لا رضى، تحت أقنعة الدِين والعادات

والتقاليد، حفاظا على دخلك الشهري، الذي سرعان ما يتوفر كي تتزوج وتبني أسرة، ستكون فيها الذئب الأعظم وحولك ذئبة مطيعة وشلة جراء، تفتح أشداقها يوميا للمرهِق من الطلبات، التي ستصبح كلها ضروريات.
تروز نقودك، فتجدها أقل من ثمن الطلبات، فتروح تنهش من هنا، وتهبش من هناك، وتتصيد الحرام قبل الحلال، متّبعا قاعدة جدك الذئب الأكبر (ما ليَ لي، وما لك لي ولك) فتصبح ذئبا متفردا كامل الأوصاف، تترصد الطرائد في غابة كبيرة يدلعونها:وطن.

عَلَمه مصبوغ بالأحمر القاني، يتوسطه شعار كُتب بخط أسود عريض:

إن لم تكن ذئبا أكلَتك الذئاب.

****

ناقدٌ فقط.

تنتقد الزعيم لأنك لست الزعيم،ولو كنت مكانه لأفسدتَ وظَلمتَ أكثر مما يفعل.

تُجرّم تاجر المخدرات المليارديرِ والموظف المختلِس، ولو أتيحت لك الفرصة لنهبت الحلال والحرام معا.

تحتقر المرتشي، وتُحرّم الرشوة، وحين تتعقد معاملتك تفتش بسراج وفتيل عن رائشٍ يُحلحل العُقَد.

تتنبأ لرابح اليانصيب بالدمار، كون ماله حراما، ولو جربتَ مثله وربحتَ لاخترعتَ فتوى لنفسك تحلل ما كسبت.

تُخَوّن التاجر المحتكِر الذي يرفع الأسعار لأسباب شتى، ولا يخفضها مهما زالت الأسباب، ولو كنت مكانه لبلعت الأخضر واليابس.

تسبّ سائق الحافلة الخاصة وهو يتباطأ كي يجمع الركاب، تروح تتلاسن معه كي يسرع، ولو كنت مكانه لطاب لك أن تحمل السيارة على ظهرك حتى لا تتعثر بالمطبات والحُفر، ولحوّلت سيارتك إلى علبة سردين.

تلعن الزوج العنيف مع زوجته دون أن تعرف السبب، ولو كنت مكانه لهويت على أم رأسها بالمدقة.

تتأفف من خطيب الجمعة حين يطيل، ولو وقفتَ خطيبا لتشبثت بالمايكروفون حتى آخر أفٍ يزفرها الجمهور.

تُـقرّع زوجتك وهي تسأل عن صحة جارتها هاتفيا لمدة ساعة، ولو كنتَ تحادث صديقة جميلة لدعوتَ الله ألا يُسكتها.

تغضب وتنتفخ أوداجك لقلة المعلقين على منشورك، بينما حضرتك لا تعلق على نصوصهم ولا تكلف نفسك بعمل لايك.

هكذا نرى القشة في عيون الآخرين، ولا نرى العصا في عيوننا.

وصدق المتنبي حين قال:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عِفّـة فلِعلّة لا يَظلم.

طبعا التعميم لا يجوز. ولكن استحلفك بالله ألست واحدا ممن سبق ذكرهم ؟!

****

قفزٌ فوق الزمن

في ظل تسارع التطور التكنولوجي وتَعقُّد الحياة بمشاكل متنوعة، لو سألت غالبية البشر ماذا تتمنى؟

لسمعت جوابا واحدا شاعري القسمات مثالي الأماني:

أن أرحل للعيش بين أحضان الطبيعة، قرب جدول رقراق، محاط بالزهور والنباتات البرية، برفقة عنزة حلوب وبضع دجاجات مع ديك صيّاح، وكلب نبّاح، بعيدا عن ضوضاء المدينة وصراعات البشر، فارغا من الهموم، مُعرضا عن نشرات الأخبار، ووسائل التواصل. سبب هذا الإجماع البشري، أن عقل الإنسان وفكره لم يتطور تدريجيا بعلاقة تزامن طردية مع تطور الحياة، التي قفزت بعد عصر النهضة في القرون الأخيرة قفزات واسعة، لم يسايرها عقل الإنسان وفكره، الذي يحمل في جيناته وذاكرته الجَمعية صورة الغابة الوديعة المسالمة ذات الطبيعة الغناء التي تشبهه.

لذا تراه على عداء مستمر مع الواقع المأزوم، يتعايش معه ظاهريا، بينما يتمنى تغييره باطنيا، وهذا ما سيحدث مستقبلا، حين تنتشر المجاعات، وتنضب مصادر الطاقة فيعود الإنسان إلى الريف والغابة لا كشاعر حالم يختار التغيير وهو قادر على سواه، بل كحيوان ناطق مجبر عليه بفعل عوامل التدافع البشري وشح وسائل العيش، وتحقيقا لسنّة الطبيعة بالارتداد إلى الأصل والجذور، للبدءِ من جديد، وهذه هي دورة الحياة على هذا الكوكب المعذَّب.

****

كيف تصبح إيجابيا ؟

لطالما أطربَتني مقولة النظر إلى النصف المملوء من الكأس، لدرجة أنني رحت أكررها في دروسي التنموية التوعوية، مبالغا بالدعوة إلى اعتبار الكاس طافحا، يكاد الشهد منه أن يندلق، وأستشِهد بتجربتي المُعاشة التي أتثبت الفرَضية وحوّلتها إلى نظرية.

كنت أسكن الطابق الأول من البناية، وتحت نافذة نومي تمتد ألواح توتياء تَسقُف كاراج تصليح جميع أنواع السيارات، لجاري الودود أبو علي، ولك أن تشاهد فوقها ما شئت من أعقاب السجائر الوطنية والمستوردة، ونكاشات الأذنين الذهبية اللون، ومناديل الورق المجعلكة، وعشرات الأصناف من قشور البزر والمكسرات، هنا رفراف بسكليت طفولي نافق، وهناك في الزاوية أعضاء لعبة طفل منافق، رماها علوش بِنَزق بعد أن أعياه تركيبها.

مشهد كان يضايقني كثيرا، لم تفلح معه الشكوى والاعتراض، لكن، سرعان ما أتذكر الكأس، فأتراضى وألبِد ساكتا.

كدت أترك الشقة، متبعا نصيحة ذلك التنموي المتفائل (أنت لست شجرة) لكن إيجارها المقبول منع عني هذا الخيار الماتع.

حل فصل الخريف الجاف، على غير عادة بيروت، فازدانت الألواح بأوراق شجر متنوعة اللون والمقاس، لتغدو معها أيقونة أخاذة، أين منها زهور السوسن لفان جوخ، وقد اتخذَتها العصافير مأوى يقيها لسعة البرد،

وأعين الصيادين؟! سعادة ما بعدها سعادة، وأنا أصحو على زقزقاتها وأترنم. منبّه إجباري يُدغدغ السمع مع شقشقات الفجر الباسم، حتى وإن رغبت في مزيد من دقائق الغفو.

جاء الشتاء الذي كنت أتغنى به، مُجاملا أصدقائي الشعراء وأولئك الأغنياء الذين يتحلقون حول (الشيمينيه) يتسامرون على وقع هسهسات الحطب، وهم يكرعون كؤوس النبيذ المعتّق ويقضمون الجوز واللوز والفستق الحلبي.

عند منتصف الليل أطبقت جفنيّ، ونَعِمت برحلة شاعرية بين أحضان الغابة الساحرة مع ليلى الجميلة للحظاتٍ قطعَها قصفُ الرعد، فقُمت فزعا من قرقعة حبات البرَد على السقيفة، تبعها مطر مستمر.

لن أكذب، فقد غضبت وشقّعت، منتظرا توقف السماء عن إزعاجي، ولما لم أنل مرادي، تذكرت المقولة، وأسبلت جفوني على أنغام سيمفونية المطر، فامتلأت كأسي بنوم هانئ، زاده الصباح نعيما، حين فتحت النافذة فذُهلت لقدرة الشتاء على غسل البيئة، وكشط آثار الجيران، ويا لجمال الألواح المتحررة وقد بدت يتيمة السطح!!

متعة لا تضاهيها متعة وأنت تشهد بأُم عينك مصداق (الطهور شطر الإيمان) فتَهمُّ بترديد أدعية الحمدلة مبتسما، مشرعا ذراعيك، فاتحا كفّيك، فتستقر فيهما حفّوضة طفل مغناج، لم تُستعمل بعد، فتهرع بها إلى الطابق الأعلى حيث الدلوعة أم علي، ليبدأ مسلسل جديد عنوانه: كيف تكسر الكأس ؟

****

ما معنى مجاعة ؟

سنسارع جميعا مؤكدين أنها تعني ألا تجد مالًا لإطعام عيالك، بينما الآخرون يتنعمون بالضروريات والكماليات.

للمجاعة أوجه عدة، لعل ما سبق ذكره هو الأهون، لأن تدبير المال بطرق عدة أمر ممكن.

الأصعب أن تملك المال في ظل انعدام السلع، كما حدث أيام السفربرلك، وكما يحدث اليوم في بعض الدول العربية.

ستشعر بالمجاعة، إذا فُقِدت السيولة من المصارف، وصارت أموالك مجرد أرقام لا تغني من جوع.

ستشعر بالمجاعة حين تسمع عن حوادث الخطف وقطع الطرق طلبا للفدية، أو عن عمليات السرقة المنظمة والمنتشرة بكثرة.

المجاعة أن ترى الحفاة العراة يتلاكمون للفوز بجالون بلاستك فارغ.

المجاعة أن تتساهى عن اللكشات والنكشات التي تُقبّح سيارتك وتنتظر الحادث الأكبر الذي يزهق روحها، وربما روحك.

المجاعة أن تترنم على صفير عجلات سيارتك الملساء كالحرير.

ستشعر بالمجاعة أذا وجدتَ المال والسلع، وفقَدَها جيرانك. أن تشتهي أنواعا كثيرة من الأطعمة وتخجل أن

تطبخها، رحمة بهم. أن يتحداك صديقك: اللحم قد تقدر على شرائه، فهل تجرؤ على شوائه؟

****

مهلا رمضان

أراك مستعجلا للقدوم أكثر من اللازم، فنحن لم نستعد للقياك بعد.

بيتنا منفوش يعيث فيه الفساد، وأهله مستسلمون للرقاد.

كيف نلقاك بوجوه عابسة وألسنة بالشر نابسة ؟!

متفرقون أيدي سبأ ومتناحرون سيوف يَعرُب.

مهلا رمضان حتى نغسل أكفنا من الدماء، وترحيباتنا من الرياء.

سترى بأم عينك ملايين البوستات الصامتة والناطقة، الجامدة والمتحركة تهلل لقدومك ولكن جلّها مكتوب بحبر المجاملة.

ستسعد بالفوانيس والأهلة المرسومة بالقطن على واجهات المتاجر، وستفرح لحبال الإنارة الملونة والمدلاة من الأبنية وفوق الشوارع.

ستجد الزينة يا ضيفنا ولكنك بصراحة لن تجد المُضيف.

هكذا وبكل وقاحة:أنت أخطأت العنوان.

ما زال أمامك متسع من الساعات كي تجد من يلقاك بوجه طلق، ومن يعُد الثواني طمعا في عناقك بصدق وإخلاص.

ستجد مضيفا شريفا، عفيفا نظيفا، لا يمد يديه إلى الحرام ولا عينيه إلى المحارم، من يفتح قلبه للتقوى قبل أن يفتح شدقيه للحلوى.

مضيفا يتعلق قلبه بالمساجد أكثر من تعلقه بالكابتن ماجد.

مضيفا يصوم النهار طلبا للثواب لا انتظارا للكباب.

يقوم الليل ساجدا وقائما لا ساهرا نائما.

ظلمناك يا ضيف إذا جعلناك مضافا إليه:

خبز رمضان /كلاج رمضان /خيمة رمضان /مسلسل رمضان / فوازير رمضان...

ومهلا رمضان مهلا، فنحن لسنا أهلا.

****

المعلم المجهول

لن يمر هذا اليوم دون أن أوجه له التحية.

هو تلك الشمعة التي تحترق كي تضيء للأجيال درب المعرفة، يعطي بصمت وخشوع بلا حدود، كمصلح لا ينتظر المقابل، فلا تعرف شماله ما قدّمت يمينه، يسهر والناس نيام متابعا عمله، ينصح ويربي، يترك بصمته المؤثرة في العظماء، فيغدو الناس كلهم عظماء، ينحنون لعطائه إجلالا.

في داخل كل منا معلم يقبع هناك، يمسك خطوط الذاكرة، يضبط إيقاعها نحو الحق والخير والجمال، ينمو معك، تشيخ أنت ويبقى نضرا أخضر، ترحل أنت وينتقل روحا تتقمص بنيك وأحفادك، وتتجدد.

****

عزيزي المستعمر:

بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن العشرات من أصدقائي أوجه إليك هذه الرسالة:

بعد البسلمة أعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

فقد أخطأنا بحقك يوم حاربناك كي نستقل.لم تكن حربا بمعنى الكلمة: بعض المظاهرات والاعتصامات تسميها حربا يا رجل؟

أنت بصراحة كنت تكرهنا وتترفع علينا ولو أنك عاملتنا كما عاملَت فرنسا جزيرة كورسيكا كنا تشبثنا بك بكل جوارحنا كما فعلوا واختاروا الانضمام الى فرنسا ورفضوا الاستقلال.

ومع ذلك نعتذر ومنك السماح.

أصارحك: حين أدخلت إلى بلادنا السيارة والجرار الزراعي وإبرة الخياطة ظننا أن أمرها بسيط وأننا سنفعل كما فعل الراحل الكبير ماوتسيتنغ وسنستورد التكنولوجيا ونصنع ما صنع الصينيون في بضع سنين،لله الأمر من قبل ومن بعد.ولكننا فشلنا حتى اليوم وما زلنا نستورد كل شيء نستورد مهندسيك وعمالك ومنتجاتك كلها فقط وأننا قاربنا خط الفقر بل صرنا تحته (بلا معنى).

تعال اشقُلنا من مستنقع الربيع فقد زهقنا. ومن الموت فقد امتلأت أرضنا بالمقابر، ولك منا خيرات الأرض.

ستضحك الآن يا خبيث وتقول إن أرضنا جف فيها الخير وأنك لن تجد فيها ما يغري بالعودة ؟

مخطئ أنت تعال فقط وانشر بيننا التعليم من جديد وألق القبض على رجال الدين ورجال السياسة ورجال الاقتصاد والفن والأدب وألبسهم بناطلين الجينز وسخّرهم لبناء سكة حديد الحجاز من جديد.حرام والله أن تظل ممددة في طول الوطن العربي الأكبر وعرضه بلا فائدة وكذكرى من العهد العثماني، تعال فقط وأنت الرابح فأرضنا ذهب ونساؤنا لُعب ورجالنا للطرب.

كنا نمزح معك يا رجل ولكنك لم تتحمل المزاح وكنت لئيما فما إن سمعت منا كلمة جلاء حتى هرولت من عندنا ؟

أين العِشرة والخبز والملح والقهوة العربية المُرة التي بيننا ؟ معظم دولنا لم تبذل الكثير في سبيل طردك فلماذا هانت عليك العِشرة ؟

في الجزائر أنت تخّنتها قليلا وحاولت فرنَستها وظلمت وارتكبت حماقات كثيرة حتى دفعنا مليون شهيد كي نستقل وتحيا الجزائر، وطلبْنا العالم كي يشهدوا نعم يشهدوا كيف لحقناك ونلحقك كل يوم لا لشيء الا لأنك كريم الأصل والمحتد (ولا تسلني عن معنى محتد) توفر لنا فرص العلم والعمل والحياة الكريمة والديمقراطية وحرية الرأي والكرامة والجميلات الطيبات القلب.

أليس حراما عليك وأنت واضع شرعة حقوق الانسان أن تُجبرنا على اللحاق بك عبر البحار وأن تجعلَنا طعاما للسمك. أين الشفقة في قلبك؟

تعال ولا تخف:هذه المرة سنكون معك وإلى الأبد وسنتزاوج حسب سنة الله ورسوله فلربما تغيرَت هذه الجينات اللعينة التي تورثنا الكسل والجهل والتعصب

والدكتاتورية والتبعية لشيخ القبيلة وشيخ الجامع وشيخ المدرسة وشيخ الدجل والأساطير وشيخ الوهم والسراب.

هذه المرة لن تحتاج لاحتلال بلادنا الى حاملات الطائرات. نحن سنحمل الزهور والأرز وسننتظرك عند الميناء ونرشّك بالزهر والعطر. وملعون أبو الساعة التي رششناك فيها بالرصاص.

تعال فقط وسترى أننا ما زلنا نحبك فمعظم شوارعنا ومعاهدنا تحمل أسماء رموزك: اللنبي وغورو وويفل ومونتسكيو وفولتير وبودلير والمرحوم ديغول.

أنت تحب المنطق العلمي أليس كذلك ؟

ما دمت تستقبل منا يوميا آلاف اللاجئين وتشكو من عدم القدرة على استيعابهم.

طيب يا أخي تعال أنت إلينا وأحضر معك عِلمك ومختبراتك ومصانعك ونحن العمال المهرة وافتح لنا مراكز التدريب واجعلنا من العاملين المخلصين بإحسان إليك إلى يوم الدين.

الموقعون: أربعمئة مليون عربي.

****

الكيل بمكيالين.

سيتبادر إلى الذهن فورا أن المقصود بهذه العبارة سياسي محض، يُطلق على أميركا وحلفائها لأنهم يدعمون الكيان الصهيوني لأسباب إنسانية تتعلق بكونهم أقلية تعيش ضمن محيط شاسع من العرب الرافضين لوجوده، بينما لا تكترث بجرائم الاحتلال ضد الشعب الفلسطيني صاحب الأرض. حين يصفون المسلمين بالإرهاب، ويعتبرون غيرهم مدافعين عن النفس.

الكيل بمكيالين عبارة تنطبق على كل من يميز بين إنسانية وإنسانية، بين لون ولون، بين قومية وقومية، بين دين ودين، بل حتى داخل الدين الواحد، بين من ينتمي لتفسيره الخاص ولفكره ومنهجه، وبين المخالف له. حين تطلب من الناس أن يحبوك لما تتميز به من خصال حسنة، فعليك أن تحبهم إذا تخلقوا بالخصال ذاتها. (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم؟).

حين تحتكر الله الواحد لنفسك وتحتقر من يؤمن به من باقي الأديان حسب تصوّره، فأنت تكيل بمكيالين.

وحين تعتبر نفسك حرا في اختيار دينك الذي تعتبره الحق المبين، وترفع السيف في وجه إنسان حر، اختار دينا مخالفا فأنت تُفصّل الحرية على مقاسك فقط، وتكيل بمكيالين. أنت وُلدت مسلما وهو ولد مسيحيا، أنت لم تبحث ولم تقرأ جميع الأديان كي تكتشف أن دينك هو الصواب، وهو أيضا لم يبحث ولم يقرأ فلماذا تتهمه بالكفر والضلال، هل لأن دينك أخبرك بذلك؟ دينه أيضا أخبره بأنه هو الحق وما عداه هو الباطل.

حين تسمح لنفسك بانتقاد الأديان المخالفة، فعليك أن تسمح لهم بانتقاد دينك. وحين تسخر من عقائدهم وتهزأ، فلا يحق لك أن تغضب وتطلق النار عليهم إن هم سخروا من دينك واستهزأوا به.

حين تفرح بترك شخص مسيحي لدينه، واعتناقه الإسلام، فعليك أن تكون منصفا، ولا تحكم بحكم الردة الموجب للقتل على من ترك الإسلام واعتنق المسيحية.

حين تفرح لبناء المساجد في دول الكفار كما تنعتهم، فعليك أن تسمح لهم ببناء الكنائس في بلادك. إذا كنت مكلفا شرعا بالدعوة إلى دينك الخاتم، فهم مكلفون بالتبشير بدينهم الخاتم أيضا.(عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.)

حين تفتخر بإقامة شرع الله وأوامره في بلادك فعليك أن ترضخ لقوانين بلاد الغرب وأنت لاجئ إليهم أو مهاجر.

حين تكون أبا رحيما فلا يحق لك التمييز بين الذكر والأنثى لان الرحمة لا تتجزأ.

والأمثلة أكثر من أن تُحصى. ويختصرها كلمة واحدة:

النفاق. وهو أخطر من الكفر لأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

****

لكل مقام مقال.

من أروع الحِكم التي توارثها العرب.

معناها أن تُواجه الموقف بما يناسبه. مثلا، لا تهزل في موطن الجَد. ولا تفتعل النكد في مقام الفرح.

لا تتظارف أمام القاضي، والعسكري ورجل الأمن والموظف العمومي، لأن أرواحهم تكون في مناخرهم بسبب المهام الجدية الملقاة على كواهلهم.

إخشع وذبل عينيك التقيّـتين أمام رجل الدين وأنت تسأل أو تُنصت إليه، وإن لم تكن تقيا فاصطنع الخشوع، وإلا اعتبرك متهتكا أو مهرطقا هازئا.

إذا زرت مريضا فابتسم في وجهه مطَمئنا إياه، مشجعا له، ولا تعزف أمامه سيمفونية الحزن وأدعية تخفيف البلاء ومستجلبات الشفاء. رافقَني أحدهم لعيادة مريض بالسرطان، وقدّم له مسبحة فتناولها المريض شاكرا، ثم رماها بما يشبه العصبية بجانب الوسادة. نعم هو تصرف يلبس ثوب التدين لكنه متسرع غير مدروس، لأن ترجمَته: إن أيامك معدودة يا أخي فاستغلها بالتسبيح.

واجِه الظالم بالانتفاض في خِلقته، لا بالدعاء عليه فقط.

قاوِم غاصب أرضك باليد واللسان، لا بالقلبِ أضعفِ الإيمان.

إرفع صوتك عاليا بكل الوسائل، أمام السلطان الجائر، ولا تكتف بالأنين والتذمر وعلك النقّ المكرور.

لأن وضع الندى في موضع السيف بالعلا

مُضرٌ كوضع السيف في موضع الندى.

****

أبو العُرّيف

قطعا تعرفون من هو أبو العريف.

لن ينفعكم الإنكار فقد انكشف كل شيء وبان.وأبو العريف لا يختلف عن أُم العريف إلا بشكل الأعضاء التناسلية بعد أن استرجلت النساء وتأنث الرجال.

اسمه صيغة مبالغة مشتق من الفعل عرف.

في جعبته حل نهائي عادل وشامل لقضية فلسطين واليمن وسوريا وكشمير وأوكرانيا وما يستجد من أزمات.

يقول كلمته ويمشي خاتما الجلسة في أي جدال، لأن رأيه زبدة الأفكار والصواب المؤكد.

مهندس بين المهندسين وحقوقي بين الحقوقيين ومفتي الديار المقدسة، يُدخل الجنة من يشاء ويكب في النار من يشاء. يكفي أن يسمع ضجة إعلامية مفاجئة حول نوال السعداوي التي لم يكن يسمع بها فضلا عن أن يعرف عناوين مؤلفاتها - حتى يصفها بالزندقة والكفر والشيطنة، مُصطفًا مع جوقة الشاتمين، مرددا مع كَورس الهازئين.

أنقذَه مارك زوكربيرغ حين أتاح له منصة النقاش غيابيا، فصار يلجأ إلى غوغل، ينسخ المعلومة ويهضمها قبل أن يُحوّرها بأسلوبه ثم يدلقها في تعليق مطول، يجعلك تهز رأسك طربا وأنت أمام علامة جهبذ مثقف، عنده دواء عشبي لكل داء، وقرار حصيف بشأن كل لقاح، وعلم غيبي حول طقس الشتاء القادم.

مع أبو العريف مشاكلك محلولة، رغم أن مشاكله تقض مضجعه باحثة عن حل لا يأتي. أبو العريف مخطِط استراتيجي يدلّك على عدة مشاريع إنتاجية مدروسة الجدوى الاقتصادية رغم أنه يستلف معيشته من أخيه وأمه وأبيه وقبيلته التي تؤويه.

أبو العريف كثير النق لا يعجبه العجب، يعترض على السياسيين في دول العالم لعجزهم عن حل مشاكل البلاد بينما هو الفرد العادي البسيط قد وجد الحل.

باختصار أبو العريف لسانٌ طويل لا يُعجزه موضوع في الأرض ولا في السماء.

بعد كل ما تقدم أما زلت مُصرا على إنكار معرفتك به؟

إذن جهز إصبعك للإشارة إليه وإليهم وإليَ وإلينا وإليك وإليكم، وبما أن الله قادر على أن يخلق من الشَبَه أربعمئة مليون، إذن فلتهنأ الأمة العربية كلها بهذا اللقب.

****

لا أثق كثيرا بشاعر سمين.

لا تركيزا مني على مظهر الإنسان دون جوهره، ولا تمييزا عنصريا ضد من سُفّنوا لحما، وطُبّقوا شحما، فالإنسان حر في اختيار وزنه وتضاريسه الخارجية، وفي أن يُقاس بالطول أو بالحجم، ولكنه ملزم بتحمل نتائج اختياره، من تعليقات ساخرة.

فهل الشاعر بدع من البشر حتى يفقد هذا الحق الطبيعي، وحتى يخرج من دائرة ثُقتي، إن توردت وجناته، وشطّت لغاليغه، وتكورت مؤخرته، واندلق كرشه؟

الجواب بكل بساطة:نعم.

لأن السمنة سمة الإنسان المطمئن السعيد، خالي البال، المرتاح من همّ السؤال، ونمّ القيل والقال، المستقيل من غَمّ العيال، ومشاغل الرجال، هو من تلك الفئة المسترخية، التي يصدق فيها(اطمأنوا فناموا، وأمنوا فسمنوا).

فهل الشاعر من هذه الفئة ؟

ما دام الشاعر إنسانا قلقا إزاء الكون والحياة والمخلوقات، منشغلا بوجودها ومصيرها، تائقا إلى حل مشاكلها، مدافعا عن حقوقها، فهل يمكن له أن يهنأ وينام قرير العين.

هل يفكر في الطعام من جعل معضلات البشرية شغله الشاغل؟

وإذا خُيّر بين مائدة حبلى بألوان الطعام، وأخرى ملأى بأطايب الكلام، فأيهما يختار؟

هل يقف على أبواب السلاطين، أم يذيب حذاءه سعيا إلى سماع أنّـات المعذبين؟

هل يهتف مع الهاتفين طمعا في الرزق السمين، أم يحمل لواء المعارضة دفاعا عن حقوق المسحوقين؟

هل ينام شبعان وجاره جائع وهو يعلم، أم يقتسم الرغيف معه؟

هل تسحره الدنيا ببريقها فيمشي وراءها كالمضبوع، أم يطلقها ثلاثا، ويسوح في دهاليز الأرض مُشكّلا عالمه الخاص، ولو أدى به ذلك إلى الانعزال.

هل يرتضي وصف(نِصف مثقف) أم يلهث وراء المعرفة، دون كلل أو ملل، لا يرتوي حتى يُرصّع قصيدته بماسات خلابة من الصور والجمال، وحتى تُبحر أفكاره على متن المجاز والدلالات المطلة من خلف السطور، ويوشّي الحروف بقطب مخفية، لا يدركها إلا الخُلّص من القراء؟

هل ينام الشاعر هكذا لمجرد أن يُلقي برأسه على الوسادة أم تبدأ رحتله مع الأفكار في هذه اللحظة تحديدا؟

هل يدغدغ النوم أجفانه دون مساعدة الحبوب المنومة، وأدوية القرحة والجرحة والمصران الغليظ؟

هل يُصنّف في قائمة البشر الأسوياء وهو يمارس طقس الكتابة، أم يُدرج في خانة المجانين، يبكي والزمان يضحك، ويضحك ضحكة الكوميديا السوداء؟

هل يدلق شعره بيُسر وسهولة، أم يتعَصوَر كالمرأة الحامل، ويتلوى تحت سياط آلام الوضع، وقد ارتفعت حرارته، وعلا ضغطه، وتلاعب الكوليسترول والسكر بدمه ؟

تخيل محمود درويش مثلا وهو يمشي كأرييل شارون، أو السياب مثل تشرشل، او أمل دنقل كأشعب.

سوف نسارع إلى تسميتهم شعراء اللقمة بدل أن نطلق عليهم صُناع الكلمة.

سندرجهم دون تردد في قائمة النظّامين، لا في قافلة الشعراء المبدعين.

لأن الشعر شعر والشحم شحم ولن يلتقيا.

****

جعلوني شيطانا.

أُحب العجائز المحنَكين.

منذ الصغر وأنا مولع بالجلوس معهم.

كنت أرى فيهم جدي وأعمامي وأخوالي الذين لم ألتق بأحد منهم بسبب التهجير الصهيوني.

منهم سمعت أخبار الأتراك الذين عايشوهم، وجرائم الإنجليز والصهاينة، والخروج القسري من فلسطين، كنت أتابع طقطقة المسابح في أيديهم وهم يروون الكرامات العجائبية الممهورة بتوقيع مشايخ الطرق الصوفية، وقصص الأنبياء والمشاهير. أكثر ما كان يسليني سردهم الوقائع النادرة التي كانت تُضحكهم فأسايرهم في الضحك، رغم أن معظمها كان مقالب ولدنة مؤذية دائما.

لم يعترضوا على جلوسي بقربهم، وأنا الصبي المطيع المنفذ لطلباتهم بشراء كبريتة أو دفتر سجائر من دكان محمد الحسن، منهم تعلمت الغيبة والنميمة، والسخرية من الغير والبصبصة على البنات قبل أن يحين أذان العصر، فأذهب وراءهم إلى المسجد وأرقبهم وهم بكامل الخشوع. تلك الحركات التي كنت أقلدها حرفيا وأتمنى انتهاءها بسرعة كي أعود معهم إلى المصطبة الظليلة وأتابعهم وهم ينقسمون إلى حلقات يلعبون الداما والسكمبيل، والطرنيب والتركس والليخة، أروح أرقبهم بدقة وهم يدمجون سجائر التبغ العربي ويتفتفون بقايا الورقة الرقيقة المقروضة، ثم ألاحق خيوط الدخان فقال لي أحدهم:" والله يا كرنيب لتصير تدخن ".

فرد عليه آخر:" خليه يدخن، زينة الشاب سيجارتو".

تعلمت منهم التشقيع وسب الدين، واللف والدوران، وكيف تصبح سلطانا في البيت، وقبضايا يحسب لك الحي ألف حساب، تعلمت سرقة الجواكر بلعبة الهاند والبناكل، وكيفية قَرص حجر الزهر للحصول على دوشيش مثلا. جميعهم تقريبا رووا قصص التوبة عن الخمر في أعمار متفاوتة، ولكنهم كانوا يهزون رؤوسهم طربا لدى تذكر الشقراوات في حيفا وتل أبيب.

شعرت من بطولاتهم المضخَمة أنني بسهولة يمكن أن أتعنتر وأُصبح سوبرمان الذي لا يغلبه أحد، حتى أن أحدهم قال " اليهود جبناء لم ينتصروا على الشباب في أي معركة".

فسألتُه" عمو، لكان كيف تغلبوا علينا؟ ". فردّ بنظرة قرف ثاقبة " سد نيعك، واقعد ساكت أحسن ما أطردك".

أكثر ما أثلج صدري معرفة الطريقة المثلى في ليلة الدخلة، حين فتل أحدهم شاربه مقررا بأن الزغاريد صدحت خارج غرفته بعد إقفال الباب بخمس دقائق، فثارت الاعتراضات عليه مستنكرة همجيته، وكذبه المبالغ فيه، فأخذ يحلف بعصبية ويغلظ الأيمان بأنه صادق، حتى أنه أكد بأن المرحوم الحاج أبو نايف كان شاهدا على ذلك، وقهقهنا جميعا حين رد عليه الأشيب المخلع الأسنان" لو فاتح القدس ما تفاخرت هلقد، يا زلمة خاف الله، دِكّة شنتيان العروس بدها خمس دقايق تتفكها ".

خليط من ذكريات رحمانية وشيطانية، لا يمكن نسيانها. كيف تُنسَى وقد تفاعلَت وصهرَتني فصرت شيخا ؟!

****

المستوطن مدني أم عسكري؟

كلما قُتل مدني صهيوني في فلسطين أو خارجها على يد فدائي تتلاكم الأقلام.

القلم المؤطَر فكريا والمشحون ثوريا يبارك العملية، مقررا بثقة: الصهاينة كلهم جنود ولا وجود لمدنيين بينهم.

الوسطي الذي تجرفه العاطفة، ومنظر جثة العجوز القتيلة، التي تحمل الأكياس في يدها عائدة من السوبرماركت، يُلطّف الحبر قائلا: يجب التصويب على الجنود والمسؤولين، وتجنّب قتل المدني اليهودي، لسببين:

أولا: لأنه لا يحارب، بل يعيش مدنيا.

ثانيا: لأن قتل المدني يعطي الصهاينة ذريعة وحجة لقصف المدنيين الفلسطينين وإبادتهم إبادات جماعية.

في وجهة النظر العاطفية مغالطات عدة، لأن التفريق بين المدني والعسكري يكون بين دولتين عدوتين متحاربتين، تفصل بينهما الحدود الجغرافية. هنا يمكن شجب قصف المدنيين من الطرفين. ولكن في فلسطين الأمر مختلف. لأن اليهودي المدني القادم من روسيا مثلا، قام بطرد الفلسطيني من داره وسكنها وهو مرتاح الضمير، ثم حمل السلاح في شبابه ولو كجندي احتياط، او على الأقل أنجب الشبان الذين يقودون الطائرة التي تقصف الحجر والبشر وتبيد الأحياء بأكملها.

هذا المدني هو الذي ساهم ببناء المجتمع، وربى أبناءه تربية عدوانية عنصرية حاقدة، وهو الذي بذل الغالي والنفيس من ماله وعرق جبينه في سبيل احتلال فلسطين وقتل شعبها وتشريده.

هذا المدني هو الذي ساهم ببناء مفاعل ديمونا بخبرته وعلمه وبزنود أولاده، وهو الذي يقود ماكينة الإعلام الصهيونية والمحراث الزراعي وماكينات المصانع لإدامة الكيان الغاصب.

المقاوم الفلسطيني إنساني يخاف الله أكثر من الصهيوني، والحل بسيط جدا، من وجهة نظره: فليعد هذا المدني البريء المسكين الطيوب الحبّوب إلى روسيا وليتركنا نعِش مع اليهود الفلسطينيي الأصل، وساعتها سنتعانق ونُعيّد معا ونصلي معا في المسجد الأقصى.

و بما أن هذا الاحتمال غير وارد فنحن في مواجهة مجتمع صهيوني مسلح ابتداءً من الطفل الذي يرضع الحقد مع حليب أمه على الفلسطيني صاحب الارض، وانتهاء بالبروفيسور المحاضر في جامعة تل أبيب.

أما الاحتجاج بالذريعة فهو أشبه بالنكتة السمجة، لأن تاريخ الصراع يثبت أن الصهاينة لا ينتظرون أية ذريعة لشن حروب الإبادة ضد الفلسطينين، وضد العرب يوم كان العرب يحملون السلاح، ثم تابوا عنه توبة نصوحا.

****

صحن فتّوش.

بكامل الجرأة قررت اليوم تحضير صحن فتّوش، وهل يكتمل الإفطار في رمضان بدونه؟

لست أدري من أطلق عليه هذه التسمية الخنفشارية، لكنني بارع في تجهيز مكوناته، هي لا تختلف عن سلطة الخضار إلا بقطع الخبز المحمص تزين وجهه، ولكن أهل بلاد الشام ـ المسالمين جدا والقنوعين جدا والمتأقلمين مع الظروف جدا والمحبين للنواب ولمرجعياتهم الدينية جدا جدا جدا ـ يتفننون في إطلاق تسميات غريبة للمقبّلات، التبّولة واليالنجي على سبيل المثال لا الحصر.

دخلت المحل وصفرت إعجابا بدقة ترتيب جنة الخضار، وقد غُرس في وسط كل صنف شاهدٌ كرتوني، يُظهر السعر بقلم رصاص قابل للتغيير حسب تقلبات سعر الدولار.

جرت العادة أن تتضاعف الأسعار تعظيما للشهر الكريم، ولكن لم أكن أتوقع كرَمَه الزائد إلى درجةٍ جعلتني أجمُط ريقي من هول الأسعار.

حمدت الله أن البائع كان مشغولا بمقارعة النساء الجميلات المجادلات بأصوات زاعقة، لا تخلو من عصبية، ويشكينه إلى الله، فرُحت أقرأ اليافطات.

حسنا، ماذا سيتغير إذا فقَد الفتوش لون البندورة الأحمر، أصلا هو غير لذيذ إلا في فصل الصيف، تراه مبرغلا من الداخل، شبه جاف من العصير.(ستين عمرو ما ينشرى). الخيار يُغني عنه.

++ (وين حاطط الخيار يا عم ؟)

ـ عندك مخبّا تحت الطاولة، ليش ما عرفت إنو صار مجوهرات ؟

++ معناتو بلا ما نسأل عن السعر.

سمعتُ الخَسة تقهقه: "بلا ما تسأل عن مَهري يا حاج".

أنا في الأصل لا أحب الفجل، وأعتبره كلحم الجمل ينقض الوضوء. شخصيا لم أقتنع بتبرير الشيوخ، وربما لن يقتنع أحد. وأكره البصل بألوانه المتعددة لأن النبي عليه السلام وروحي فداه كان يكرهه، مع أن العلم يثبت فوائده التي لا تعد ولا تحصى. البقلة أمقتها لا لارتفاع ثمنها في هذا الشهر الفضيل، بل لأنها غنية بأملاح ترفع ضغطي. الجرجير اللعين طعمه لذيذ ولكن المثل يقول(لو عرف النسوان فوائد الجرجير لزرعوه تحت السرير). طيب، هو مثير للشباب، مالي أنا وماله وقد شارفتُ على السبعين.

سألت البائع بصوت جهوري:" معلّم، عندك زعتر أخضر ؟".

قال لا. فقلت: الحمد لله.

تناولت ضمة بقدونس فوجدتها بوزن الريشة، قد اختُزلت ببضعة عروق، وكفائدة لغوية فالبضع من ثلاثة إلى عشرة.

تناولت معها ضمة نعناع ذابلة القسمات، وعُدت ساهما، ذاكرا الله ذكرا كثيرا.

فتحتُ الباب فقطبَت بعلتي حاجبيها:" وين عدة الفتوش؟".

ناولتها العروق فرَمَتها فوق المجلى، وهي تزمجر بكلمات سريعة شبه مسموعة، وعيتُ منها كلمة أمك.

كظمتُ غيظي، قائلا بسماحة الصائم التقي: اللهم إني صائم. ثم استلقيت فوق الكنبة.

فتحتُ غوغل وكتبت:

أضرار (السلطة)على صحة الصائم.

ولا أدري لماذا ابتسمتُ ابتسامة الرضى، هل لتذَكّر النسوة في محل الخضار أم لإمكانية ضم حرف السين في السلطة ؟ !

****

الإبداع بين الفقر والغنى.

يبدو العنوان مثيرا للسخرية. إذ ما علاقة الإبداع بهما؟

البعض يربط الإبداع بالفقر مستشهدا بعشرات الكتاب والفنانين الذين عانوا ويلات العوز والحاجة، وتشكلوا في الأرياف الفقيرة قبل انطلاقهم في المدن. البعض يعترض على هذا التعميم ذاكرا أسماء أدباء لامعين، ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب، كأحمد شوقي، ونزار قباني.

الطرفان على حق، لأنهما نسيا أمرا مهما، وهو أن المعاناة هي التي تفجر الإبداع، وهي ليست محصورة بالفقر، بل يشاركه فيها الغنى أيضا. لأنها تشمل المرض الجسدي والنفسي والتهجير والقهر السياسي والظلم الاجتماعي، والتمييز العنصري، والانشغال بالوجود والحياة وبالإنسان وهمومه الخ...

والمثقف الموهوب الذي يمر بهذه الأزمات، يستحيل أن يبدع أي عمل أدبي أو فني، وهو يكتوي بنارها، لأن فكره وكيانه كله يكون منشغلا بالتخلص من أسباب هذه المعاناة، قد يكون السياب وأمل دنقل قد أبدعا ما أبدعاه من شعر خلال فترة الكفاية المادية، وهما موظفان يتقاضيان راتبا يكفي للعيش الكريم، ولكنني لا أتخيل أنهما كتبا حرفا واحدا وهما يذوقان صنوف الألم المرضي في آخر حياتهما.

نفهم أن معاناة اللجوء والفقر قد صاغت خميرة الإبداع لدى غسان كنفاني، ولكنه لم يبدع إلا بعد تجاوزهما نحو الاستقرار النفسي والبحبوحة ولو كانت محدودة.

من يدري ما الذي كان يعانيه نزار قباني رغم تحدره من أسرة غنية عريقة، وكذلك أمير الشعراء شوقي الذى تربى في القصور ؟

هل كنا سنسمع بنوال السعداوي لو لم تعانِ ويلات قيود الزوجية؟ أغلب الظن أنها كانت ستنجح كطبيبة مشهورة وربة بيت عادية.

هل كان سجل الأدب سيفخر بسومرست موم لو بقي يزاول مهنة الطب في بريطانيا، ولم يشارك في الحرب العالمية الاولى؟

هكذا تتضح الصورة ويبتعد الإبداع عن الفقر والغنى ويرتبط مباشرة بالمعاناة الناجمة عنهما، وعما يرافقهما من هزات وارتدادات لا يعلمها إلا من شعر بها.

****

نعمة الغلاء.

أجل نعمة !! رغم أنك ستنمغص وتمتعض وتهزّ رأسك رافضا.

قبل الغلاء كنتَ ذا كرش مندلق، تُقاس بالحجم وتُصنّف من آكلات اللحوم، تَحشّ الأخضر واليابس، محشُوّا بدهون المشاوي والحلويات العربية والافرنجية.; بعد الغلاء صرت سمبتيك، ممشوق القدّ، نحيف الخد، نباتيا زُمُرّدي الأمعاء.

أيام الرخص كنت رخيصا في سوق الحياة، تخنقك عوادم السيارات، ومداخن المصانع، اليوم نامت السيارات أمام المنازل نومة أهل الكهف، فصَفَا الجو وقلّت سماكة طبقة الأوزون، ونظفت جدران البيوت. عُدت لممارسة هواية المشي الإجباري، وحمل الأثقال لتبرز عضلاتك المفصلة المفتولة من جديد.

قبل الغلاء كانت أضواء الكهرباء تخطف بصرك حيثما توجهت، وتدعوك للسهر وكبّ النقود بإسراف وتبذير، اليوم تخلّصتَ من الكهرباء والجلوس كالصنم أمام التلفزيون، وصرت تغازل زوجتك على ضوء الشموع وهمسات القمر. تنام قرير العين دون حاجة إلى قطرة الحساسية والاحمرار.

قبل الغلاء كنت تبعزق المال على الرحلات المُنهكة التي تبعث فيك حب الخصام والتعارك الكلامي مع الزوجة والأولاد، وعلى حفلات الخطوبة والزواج وأعياد الميلاد المستوردة الدخيلة على مجتمعنا، وحفلات الولادة

والطهور، اليوم تخبئ قرشك الأبيض لأيامك السود القادمة.

قبل الغلاء كنت تترنح مع نصيحة عمر الخيام:

فما أطال النوم عمرا ولا قصّر في الأعمار طول السهر.

اليوم تتباهى بالمَثل الذي يكرهه الشبان: (نام بكير وقوم بكير، وشوف الصحة كيف بتصير). تصحو هادئ المزاج، على وقع زقزقات الطيور التي تضاعفت أعدادها بعد أن أمِنت خرطوش الصيادين.

قبل الغلاء كنت تطعج ظهرك ورقبتك عابدا اللابتوب والهاتف، تبتسم وحدك كالأبله، كنت مسخرة، اليوم عادت إليك هيبتك وصرت وقورا، تكتشف أن عائلتك جماعة طيبون دمهم خفيف يتقنون التحدث، والدردشة.

بعد الغلاء صارت الصحة بخير، والبيئة بخير، ودول الكومنولث وحلف الناتو بخير، وسرير الزوجية بألف خير، وهو المطلوب إثباته.

****

مارك في قفص الاتهام

سامحك الله يا مارك زوكربرغ.

من خلال الفيسبوك منحتَنا فرصة التمثيل، ولبس الأقنعة، وتزوير الذات والصفات،وادعاء حمل الشهادات،وإماتة الأحياء،وإحياء الأموات. نسفْنا الأمانة العلمية و(حرقنا سلّاف) التوثيق.

أصبح الرجال كل الرجال وسيمين جدا، والنساء فائقات الجمال.

أرضنا ذهب،وأطفالنا لُعب، وشعبنا عجب.

صار (إل باتشينو) فيلسوفا هنديا.

وروبرتو دي نيرو حكيما بوذيا.

الإمام الشافعي يبكي وينتحب وهو يشاهد معظم أشعاره منسوبة إلى سواه.

والإمام علي عليه السلام يضحك بمرارة وقد نسبوا إليه قصيدة ركيكة جدا جدا،فقط ليزيدوه شرفا وثقافة، مع أنه في غنى عنهما، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه باب مدينة العلم.

صارت فيفي عبده داعية تربوية.

وأنجيلا ميركل فقيهة في باب الزكاة.

(سيدو ماني) التّقي النّقي ينظف حمامات المساجد تقربا إلى الله.

وغريمُه محمد صلاح يجدد البنية التحتية والفوقية لقريته.

(ميسي) يصبح يهوديا متصهينا يدعم إسرائيل بمليون دولار، فيجن جنون رونالدو فيتبرع بأضعاف المبلغ لغزة.

إبن أحد الكتاب يصبح طبيبا صغيرا يوجه نصائح قيمة للأطفال للوقاية من الكورونا. والحَجة الأُمّية أم عوض تُدلي بدلوها في ميدان النصح والإرشاد. صرنا كلنا دعاة، وكلنا قضاة،وكلنا خبراء في كل مناحي الحياة.

شكرا مارك جعلتنا نشاهد صندل الرسول وعمامته وقد حصد كل منهما مئة ألف تعليق، ومثلها من اللايكات، بينما لم ينل حديثه الشريف عن الأخلاق إلا بضعة تعليقات خجولة متثائبة.

مصيرك النار يا مارك وقد جعلتَنا نخلط الأديان والفلسفات والأشعار فنخرج بقصيدة عصماء قالها الحطيئة والمعرّي ونزار معا.

شكرا مارك أظهرتَنا على حقيقتنا عامدا متعمدا إذ أسميته كتاب الوجه(فيسبوك).

****

الخَسة في رمضان

هي في كل الأوقات خَسة، لن تتغير.

طعمها واحد في كل البلدان مهما اختلف الشكل، سواء أكانت منمّقة ممشوقة كوردة، أو منطوية على نفسها كالملفوف.

لكنها في رمضان تختلف، تُغلّي مهرها فيغار منها الأقران، وينفضّ عنها العرسان.

فجأة تصبح حديث الجميع، ترتسم على وجوههم، تحركهم بضلوعها فيتمايلون كالدمى، مقررين الاحتفال بها كرمى لهذا الشهر الفضيل.

{ لا رمضان بلا خسة }

جملة يرددها المعلم المتثائب في صفه والموظف الذابل بين معاملات المواطنين المكدسة.ويلهج بذكرها المهندس الغشاش والمحامي القشاش.

يقدسها أرباب البيوت والربات، الأتقياء منهم والتقيات.

يُطفّف التاجر مكياله للفوز بها ويضاعف أصحاب المهن أجرهم من أجل عينيها.

حتى الخطيب يذكرها يوم الجمعة ناصحا المصلين بتخفيض مهرها حتى يتذوق. أوَليس الإمام بشرا مثلنا.

الوحيد الذي لا يذوق طعم الخسة هو ذاك الفقير الذي يفترش الرصيف بائعا حاجات متواضعة لا تسمن ولا تغني.

ورب سائل يسأل: أتحتاج الخسة في رمضان كل هذه الثرثرة؟

أترك لكم الجواب شرط أن تعيدوا قراءة الجملة (لا رمضان بلا خسّة) بفتح الخاء، أو بكسرها والكسر أولى.

****

(بيسو) لا ترحل.

تخيلوا الحياة بلا إبليس !!

مقرفة فعلا.

يولد الطفل مبتسما. يتربى في جو من الفرح، أخوه لا يزاحمه على اللعب، وأخته لا تغار منه لأن الأهل يميزونه عنها، فلن يشد شعرها، لسبب أو بلا سبب.

رفيقه يعاونه دون أن يطلب، والأساتذة في المدرسة ملائكة تمشي على الأرض، لا يلطشون من وقت الحصة أية دقيقة، ولا يتلكؤون من الملعب إلى الفصل كمن يمشي في جنازة الزعيم، ولا يختلقون الأعذار للغياب، كيف يفعلون ذلك والمدرسة بالنسبة إليهم أشبه بمدينة الملاهي؟

المفتش يغير اسمه فيصبح موجها تربويا، هدفه التقييم والتقويم لا الترصّد والتحطيم.

المدير يزاحم الفرّاش للوصول قبله إلى المدرسة، عادل جدا يحب المعلمين تماما كما المعلمات الجميلات.

لست في حاجة إلى الغش في الامتحانات ولا أن تقول (وما أنسانيه إلا الشيطان) فلا نسيان مع انعدام الشيطان.

التاجر أيضا لن يغش، سيطبّش لك الميزان ويرخص لك الأثمان، وينصحك بالعسل الأصلي وزيت الزيتون البكر، والحليب غير المتكافئ كيميائيا مع الماء.

سائق الأجرة سينزل مسرعا كي يفتح لك الباب، حتى ولو لم تكن أنثى، ولن يبعص العداد، تخيل يا محترم أن

لا تشارعه ولا تقارعه، أية رحلة هذه التي لا تهوّي فيها على وجهك، وقد كفاك المكيف الشغال هذا العبث؟ ستظل جامدا كالأخرس لأنه لن يثرثر عن الزحمة واللحمة والطقس والغلاء، بعد أن قام الزعيم وأعوانه ـ حفظهم الله وأمد في سنوات سلطتهم ـ بتنظيم مرافق الحياة كلها، فامّحت كلمة فساد من أذهان الناس، فلا (أكشن)يُمتّعك وأنت تتحبرم مرتبكا حائرا كيف ترشي الموظف العمومي، سيبتسم لك، ويقف لاستقبالك، ويمد ذراعه اليمنى قائلا " تفضل إجلس أخي الكريم، لا تقلق أبدا، معاملتك ستجهز حالا، حتى ولو كانت الأوراق ناقصة، يمكنك إحضار النواقص متى شئت، فنحن نثق بالمواطنين جميعا" موقف سيكون مزعجا لأنك لن تكزدر نحو المؤسسة أياما بعد أيام، ولن تشغل فكرك بها أعواما بعد أعوام، عمّ ستتحدث مع زوجتك وأهلك ورفاقك، كيف ستجد موضوعا للنق والجق والتذمر والشكوى؟ يا سيدي ماذا ستدعو في صلاتك، طالما أن حقوقك كلها واصلة إليك، ولا مخلوق يعتدي عليك؟ أصلا لن تكون في حاجة إلى الصلاة والصيام والزكاة والحج، وانت تعيش ملاكا في جسد إنسان.

كيف نتحمل أن ننام بدون صوت الكلاب الشاردة والقطط الوالدة، والشحادين وأطفال الشوارع؟

كيف سنعيش بدون الكُتاب والأدباء والفنانين؟ كل الفنون السبعة ستُلغى عندما لا يجدون عجوزا تناوش الكلاب عند حاوية القمامة، أو يتيما يشكو الحرمان.

كيف ستعيش دون تشقيع لابن جارك الذي يرقص(بريك دانس) على وقع الموسيقى الصاخبة؟

تخيّل القاضي وهو يكش الذبان في المحكمة، لا متنازعين حول الميراث، ولا متحاربين حول الأرض، ولا

مطلقة ترفع صوتها مزمجرة لأن بعلها يتودد إلى أمه أكثر منها، ويبر والده، أو لأن سِلفتها مُنعمة تعيش عيشة الفخفخة والمنفخة، تُغيّر العفش كل عام، بينما أكل الدهر عليها وعلى عفشها.

هل تقبل بإلغاء مهنة المحاماة؟ وعمن سيحامي إذا كان الشعب كله صادق العهد وفيا بالوعد، يقدس حق غيره أكثر من حقه؟

ماذا سيفعل أطباء الأسنان والعيون وقد انعدمت المشاكل وحلقات الملاكمة من الشوارع. أطباء القلب أيضا سيشحدون طالما أن الرَواق والهدوء يلف البشر، فلا ضغط سيرتفع، ولا تصلب شرايين، لا قسطرة ولا مسخرة تضطرك إلى عملية القلب المفتوح، حتى الحامل ستلد في البيت مثل أيام زمان، ولن يكذب عليها الطبيب بأن ولادتها متعسرة تستدعي شق البطن. كل هؤلاء وسواهم، من أين يقتاتون، وكيف سيعيشون بلا بيسو، إبليس يعني؟

كل هذا كوم، ونشرات الأخبار كوم.

أية أخبار سينقلون وقد ساد السلام وعمّ الوئام، فلا مناورات ولا مؤامرات، لا عنف ولا قصف، لا أمم متحدة، ولا مجلس أمن؟

تخيّل، مجرد تخيل، أن نعيش بدون جامعة الدول العربية؟ الشر برا وبعيد.

يطول عدّ الأمثلة.

باختصار، بدون الشيطان الحياة مملة رتيبة، تتسبب في الضجر والشقاء والتكشير الدائم. عرفتم الآن لماذا كان أهل السويد ينتحرون قبل عام 1980؟

لأنهم كانوا يعيشون بدون الشيطان.

وهل أدركتم لماذا هم الآن في قمة الانشراح والألق ومتعلقون بالحياة، أيّ حياة !؟

لأن العرب والمسلمين هاجروا إليهم.

****

كيف تصبح زعيما؟

يأتي الأمر عفويا، دون قرار مسبق منك، ودون تخطيط.

تكون مؤمنا إيمان العجائز البسيط المنجّي المؤثّر في سلوكك ـ إيمان موجز سهل بالله ويوم الحساب والتزام بالشعائر التعبدية، من صلاة وصيام وذكر وتسبيح، وعمل صالح منطلق من خلق كريم ـ فيسوقك القدر نحو محاضرة لرجل دين مشهور، أو يطل عليك من الشاشة بوجه عبوس قمطرير، مشيرا إليك بسبابته: أنت لا تعرف شيئا من أمور الدين، وعلومه الضرورية من تفسير وتوحيد وحديث وسيرة وأحكام الفقه وعلم التجويد. تروح تلوم نفسك على التقصير، والجهل، وترتجف لما ينتظرك من سوء المصير. ولأن الصفعة زلزلت قلبك وعقلك، فأنت لاشعوريا ستواظب على دروس هذا الشيخ، تلتقط أسماء السلف الصالح، وعناوين مؤلفاتهم الضخمة، وإلى أقرب مكتبة تهرع لاقتناء المجلدات الزاخرة بالعلم النافع، وهكذا يجرّك كتاب إلى كتاب، وعلم إلى علم، تنظر إلى الروزنامة فتفاجأ بأنك سلخت من عمرك السنين النافعات.

تقول: هذا لا يكفي، ماذا إذا كان هذا الاتجاه الفكري ضالا مضلا، ألا يُحتمل أن يكون غيره هو الأصح؟

إذن فإلى كتب الاتجاه الثاني، ثم الثالث، ثم السبعين، في رحلة سعادة معرفية تقاس بالعمق، لا بالعمر، وها أنت الآن مثل العقاد علّمت نفسك بنفسك، وصرت تجادل وتُقنع من يواجهك مسلحا بالأدلة والبراهين، أي صرت داعية.

في ليلة قمراء، تشبك أصابعك خلف رأسك، وترسل نظرك إلى النجوم، فتبرق في ذهنك خاطرة بديعة، لم يسبقك أحد إليها، كمعنى فواتح السور المبهمة، أو الإجابة الأكثر إقناعا حول الجبر والاختيار، أوتجديد معنى لا إله إلا الله، أو الحاكمية الجديدة أو الوسطية العالمية، أو سبب تدليع بني إسرائيل، والاهتمام بهم وذكر مواقفهم في سبعين سورة، أو تأويل (ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم) كي تتناسب مع عدل الله؟ فتنهض من فورك وتضع المخطط المدروس الممنهج لخطوات البحث وأفكاره، ويلهمك الله طبعا للفوز بتحفة نادرة مبتدعة ونظرية مسجلة باسمك، تدور في فلك الدين ولا تشذ عن الكتاب والسنة وتقريرات السلف الصالح، قوامها فكرة من شحرور وأخرى علمية إعجازية من عدنان ابراهيم، والكيالي، مُبَهّرة بافكار تنويرية من المعري وابن رشد وسبينوزا وكانط، ولا بأس بنقل أفكار المسيح عليه السلام في مجال التسامح ومحبة الأعداء، والتغني بالام تيريزا، ونوال السعداوي،وغيرهم من المجددين، فتتنهد تنهيدة الظفر والنجاح.

هذا الكشف المبارك سيضيع ويندثر إن لم تنشره ورقيا، وافتراضيا، وترسخه في المجالس والسهرات وفي مجال العمل والترفيه، وكي يسري في العالم سريان النار في الهشيم، ما عليك إلا التعرض لجهابذة الإتجاهات المخالفة، بطريقة ذكية خبيثة منمقة باسمة كبسمة عبدالله رشدي، تعتمد فيها على التخطئة ثم التجهيل فالتفسيق فالتكفير، بنبرة عمرو خالد الناعمة لا بأسلوب المهرج المبروك عطية، أو الزاعق الناعق عمرو أديب. تمايُل الشعراوي مقبول لكن التكشّك هو الأنسب.

عندها تقوم الفضائيات ولا تقعد، تروح تفتش عن رقم هاتفك، كي تستضيفك لحوار أو مناظرة او محاضرة، ولا تنس أن تنشئ صفحات انترنتية يسهل العثور عليها، تُسطّر فيها منطلقات نظريتك الجديدة وآرائك الفريدة، وما هي إلا أيام حتى تفرح وقد تضاعف متابعوك ومريدوك فصاروا آلافا تُختزل بحرف .k

عندها تنتشي وأنت منتصب على القمة، لكن إياك أن تغتر بالوصول، فبَعد القمةِ قممٌ تنتظرك.

سجّل اعتراضات الخصوم وتبحّر في مطاعنهم حول هفوات فكرك وثغراك علمك، وشمّر عن ساعد البحث والدراسة، كي تجد لكل سؤال جوابا مقنعا مبهرا للسائلين.

ستواجهك معضلة بسيطة تتعلق باسم المذهب الجديد، لا داعي للحيرة، الأنانيون يشتقونه من اسمهم الشخصي، الطريقة النعسوية مثلا.

لا أنصحك بذلك، اختر الاسم المتناغم مع جوهر نظريتك مثلا (الإسلام العصري).

هندم نفسك بما يليق بهذا العنوان الجذاب، بدلة أنيقة وربطة عنق فاخرة لا تشبه لسان الثور، ذقن ناعمة الشعر، وسكسوكة محددة بإتقان حلاق شبابلكي معنطز، وإياك أن تحف الشارب فتصبح مربع الوجه مثل محمود المصري، فتكون من الهالكين.

لن ينتهي الأمر هنا، بل ربما بدأ.

ستتناوشك المذاهب الأخرى وكلها تدّعي امتلاك الحقيقة، والفهم الأدق للدين، سيكفرونك علنا عبر منابرهم وفضائياتهم التقية، وسيؤلبون عليك الساسة وذوي

النفوذ، فاستعد إذن لمواجهة الكلمة بالكلمة والسكين بالسكين والرصاص بالرصاص، ستحدث إشكالات بسيطة هنا وعراكات هناك ستوصف بأنها فردية تافهة، لكنها سرعان ما تتضخم.

حسنا أنت الآن في نقطة اللاعودة، ويتحتم عليك إيجاد ظهر يحميك وسند يستفيد من جمهورك الراضخ لأمرك،

رأس السلطة سيدرس إمكاناتك ومدى الاستفادة منها، ربما يقبل تبعيتك له، وربما يُفضّل مذهبا مخالفا لك، يتمتع بقاعدة شعبية أعرض من شعبيتك، هنا ما عليك إلا أن تتحول إلى مُعارض، تتخابر مع دولة خارجية كي تؤمن لك الدعم المادي والمعنوي واللوجستي من تحت لتحت، فتصبح حزبا سياسيا معترفا به، يده على الزناد في انتظار الحرب الأهلية، التي تهلك الحرث والنسل، احتمال أن تقصف عمرك وربما تجعلك لاجئا إلى من وعدك بالحماية، تتابع بأسى وطنك المقسم.

ثم يزغرد إبليس.

****

تقمّص.

ما الذي ستخسره البشرية إن كسرتُ قلمي ومزقت الورق، وطويت إصبعي عن النقر على الكيبورد؟

اعتكفَ الآلاف قبلي، ومات من الكُتاب من مات، وجُنّ منهم من جن، فهل توقفت ساعة الزمن؟

لماذا لا أنهض صباحا فأفتح نافذتي للنور ونسيم الصباح، وأُقنع نفسي بحركات سويدية متثائبة، ثم أصطحب كلبي في نزهة صباحية بين المروج وبرقوق الربيع، بعدها أعود وأجلس مغازلا زوجتي هنيهة، متناقشين حول الإفطار، الذي تتركه زوجتي لذوقي كبعل لها، فأطلب المقلوبة مع لحم الخروف الرضيع، فتبتسم لي ونحن نتقلب في بحبوحة أسرية تكفيني قرف العمل، ومقارعة بني جلدتي الطيبين الأشاوس، ثم أسلك يدي في جيب البنطلون فأجد قائمة طلبات مزدحمة، فأبتسم برضى تام، متماهلا نحو السوق، أفتعل الجدال المستعر مع البائعين، توخيا لمتعة سوقية، تنقل المتقاعد من الرتابة إلى معترك سُنّة الحياة، لن يتضايق المشاة من كلبي الذي ربيته على الانضباط في مشيته، وعلى ضبط مثانته وتصبيرها ريثما نعود إلى البيت. إذن ما الذي دفعه حتى يتبول حيثما شاء؟

اليوم طوّر عادته القبيحة، فلم يحل له التغوط إلا في طريق العجائز المتساندين نحو المسجد، غير عابئ بشتائمهم لنا نحن الإثنين، لم أرد الشتيمة بأقذع منها، حتى أنني لم أحم وجهي من الحصى الذي راحوا يقذفون الكلب به، يبدو أن كلبي أشجع مني، تفلت من يدي

واندفع نحوهم، فلا تسمع إلا قرقعة العكاكيز على الإسفلت هاربة إلى المسجد.

تساءلت: لماذا لا يصطحبون معهم كلابا تحميهم، كما أفعل، يكتفون بالتضجر، وتكرار النصيحة التي يتخم بها الإمام أذني بلغة فصيحة تجنبه الزلل:" لو كنتَ تقيا لما اقتنيت كلبا نجسا، ولرأينا قلبك معلقا بالمسجد مثل باقي الشيوخ، ماذا جهزت لآخرتك؟".

فكرتُ مليا في شرح عذري الذي يمنعني من الصلاة في المسجد، لكنني اكتفيت بالابتسام، ونهر كلبي نحو البيت.

هل يتوجب علي أن أكون ثرثارا فأتحف زوجتي بقصةٍ سرعان ما تتناقلها الريح بين الجارات؟ أم أكتمها بداخلي منتظرا موعد الإفطار الصامت، ثم القيلولة التي أدعو الله أن تمتد حتى الصباح، فتختمر قصة ممطوطة أنشرها، وتحظى بعدة لايكات متثائبة، وبضعة معلقين، سيتركون الاحداث والمعاناة والوحدة والانتظار، ويصوبون حروفهم نحو حكم اقتناء الكلب شرعا، قصة تدور أحداثها في السوق، أبطالها شيوخ ركّع، ومتقاعد يُجبره المرض اللعين على التبول في الطريق، ثم يكمل برنامجه اليومي وحيدا بين مكانين لا يتغيران، في انتظار المكان الأخير حيث لا إمام ولا مأمومين ولا كلبا يبول.

****

اللّه مع من؟

سؤال زلزل تفكيري مذ نبت وبر شاربي، كنت أسند ذقني بكفيّ منبطحا أمام أمي، ودموعها تتهادى على خديها، تروي لي حنينها الجارف إلى أهلها ودارها في فلسطين، وقصة المذابح والتهجير وانتصار اليهود.

ببراءة سألتها: ليش الله ما ساعدكم، معناتو هو معهم مش معنا؟

يومها زوَرَتني شزرا، وأقنعتني بصوت حازم:"حرام تحكي هيك بتكفر وبتفوت ع جهنم".

في العام ذاته عاد أخي الأكبر، وكان مدرسا في السعودية، فأحب ممازحتي:" أنت الآن تدرس في معهد أزهري يعني من أنصار الرحمن، وأنا لم أحجّ رغم عملي في السعودية، فأنا من حزب الشيطان، تعال نتباطح لنرى من سينتصر؟

لم أتردد لحظة في قبول النزال، وقد أكد لنا أستاذ العقيدة أن الله ينصر من ينصره، وأنه مع المتقين، وكنت أحسب نفسي منهم.

لم التفت إلى عضلاته المفتولة، ولا إلى فارق السن والخبرة، فبطحني بحركة واحدة سريعة. برَمتُ بوزي على إثر الهزيمة، بينما راح هو يقهقه.

طبعا عرفت بعد كتابين أنني هُزمت لأنني لم آخذ بالأسباب، ولم أجهز ما استطعت من قوة، فرجعت إلى أمي غضبان أسفا متسائلا:" لماذا لم تعدوا العدة المناسبة في فلسطين؟

شرحَت لي كلاما سياسيا كثيرا حول موازين القوى، وضعف العرب والمسلمين، لم أقتنع به، ودمغتها بحجة بالغة علّمنا إياها أستاذ السيرة النبوية بأن الفئة القليلة غلبت الفئة الكثيرة بإذن الله يوم بدر.

يومها تَخرسَن الأستاذ، ونظر إليّ نظرة تهديد بعد أن صفنتُ لحظة ثم سألته:" أستاذ، إذا أضفنا آلاف الملائكة الذين نزلوا لدعم المسلمين، يكون المسلمون هم الأكثر عددا، وليسوا الفئة القليلة".

رد عليّ بلهجته المصرية المحببة" أيوا كدا، ردد كلام المستشرقين، وأعداء الإسلام، والله ما انتا نافع، ولا عمرك حتبقى شيخ".

حسنا دعوني أكبر قليلا، كنت في المدرّج أنصت باهتمام إلى شرح الدكتور لسبب انحدار المسلمين وزوال ملكهم،

عازيا ذلك إلى بعدهم عن الله، وعدم تطبيق أحكام القرآن ومبادئه الخلقية.

لم أسكت كالعادة، فقاطعته:" دكتور، إذا كان المليار مسلم بعيدين عن الله، فهل اليهود وباقي الأديان، والأوروبيون هم القريبون منه، أعتقد أن العرب والمسلمين هُزموا لأنهم بعيدون عن العلم والكشف والاختراع، والتصنيع والزراعة.والتجارة واللياقة في التعامل وبناء العلاقات؟

كان مهذبا محنكا بعض الشيء لأنه حصل على الدكتوراه من ألمانيا، فطلب أن يحادثني على انفراد، فقال:" أسئلتك جريئة جدا، وكلامك ده حيوديك في داهية، خد الليسانس بتاعك، وبعد ما تمشي من هنا قول اللي انت عايزو ".

أخذت الشهادة ومشيت، وكرت السنون، قلت بعض اللي انا عايزو وليس كله لأن في جعبتي الكثير المثير.

****

تعدُّد الآلهة

يخطئ من يظن أن تعدد الآلهة كان محصورا بمرحلة تاريخية سبقت ظهور أديان التوحيد، المختلَف على بداية نشوئها زمانيا ومكانيا، وأنه انتهى بظهور الموحدين.

تعدد الآلهة مستمر مع ظهور التوحيد ولم ينقطع حتى يومنا هذا.

لن أتحدث عن جميع الديانات التي تعترف بوجود الله، بل سأضرب مثالا بدين سماوي واحد هو الإسلام، فهل الله واحد عند المذاهب الإسلامية ؟

سيقال: نعم.

وأقول: لا.

لأن الوحدانية تقتضي توحيد الله في الوجود والذات والصفات والأفعال، بمعنى أنه متفرد بها ولا يماثله فيها أحد، وكل واحدة من هذه المزايا مُختلف عليها بين الفرق المتبقية حتى الآن، لدرجة أنه تمت زيادة صفتين جوهريتين عليها وهما الربوبية والألوهية، وشرح هذه المزايا يطول ويمكن الرجوع إليه ببساطة عبر غوغل.

معظم الفرق الإسلامية تؤمن بأن الله خارج العالم وليس داخله والا كان جزءا منه، ومع ذلك تختلف في صفاته وأفعاله، وفي تأويلها أو عدم التأويل، فالسلفية يثبتون لله الوجه واليد والقَدم، ولكن ليست مشابهة لما عند مخلوقاته، بينما يؤولها باقي الفرق، ويمكن الرجوع إلى علم الكلام للتوسع في إدراك حجم الاختلاف بينها وما أدى إليه من تكفير وتفسيق وابتداع وحروب مذهبية عبر

التاريخ، وحاليا. هذا بالنسبة لمن يعتبر الله خارج الزمان والمكان، وهناك فرق تعتبره قديما قدم العالم، وبعضها يعتبره والعالم وجودا واحدا لا ينفصل.

كل ما سبق يخص الإسلام ولنا أن نضرب عدد الأديان في العالم بعدد الآلهة عند المسلمين لنتأكد بأن عدد الآلهة حاليا أضعاف ما كان قديما عند اليونان والرومان والفرس الخ..

ويترتب على هذا التعدد احتكار كل فرقة للإله الذي تعبده، وبأنها الفرقة الناجية يوم القيامة وأن ما عداها في النار. كما يترتب عليه نشوء فرق وحركات دينية جديدة باستمرار، ارتكازا على جزئية هنا، وتفريع هناك.

الحل يكون بعودة جميع الأديان والمذاهب إلى دور عبادتها وجعل التدين فرديا لا جماعيا، دون فرض مذهب ما لعقائده وتعاليمه على الغير بحجة أنه الدين الأشمل والأكمل والخاتم، لأن كل الاديان والمذاهب تعتقد بهذا، ولتترك حرية التدين لمن يشاء، وحرية عدم التدين لمن يشاء، تحت سقف القانون والنظام والعدالة والمساواة.

****

جعلوني....

لا علاقة لقصتي بفيلم فريد شوقي، ربما العنوان هو القاسم المشترك، ولكن العناوين البراقة خداعة، مثلا شعب الله المختار، أو ما يماثلها طبق الأصل: كنتم خير أمة.

عفوا، استطردت بعض الشيء والاستطراد مرهق للقارئ.

نعود للقصة، للوهلة الأولى ستتأكدون أنني كنت بريئا مظلوما، وضمير الجماعة في جعلوني يشير إليهم. من هم ؟ سأترك لكم اكتشافهم، والحكم في القضية.

بعلبك عجائبية تاريخا وجغرافيا، فيها تعاقُب الحضارات، طبيعةُ القرية، ومقومات المدينة، كنت صبيا فضولي الحواس، أرى فلاحا ينطلق يوميا نحو الكرم القريب فأتبعه من بعيد متأملا شغفه بالعمل، وأسأل أمي:

أين كرمُنا؟ فتخنقها الدمعة، ومع الحشرجة تشير بيدها نحو الجنوب. تروح تحدّد لي مواقع الدونمات التي يملكها جدي قرب الناصرة، وتؤكد أن حُجج الملكية تتحاشر في علبة البسكوت هذه، كلها تلونت بالاصفرار لكنها واضحة التواقيع والأختام، وحين انتصر الغزاة حملَت العلبة، والصُرر على عجل فرارا بعرضها وحقنا لدماء زوجها والأولاد.

الآن ستقولون: "يكفي، يكفي، بلا ثرثرة، فهمنا القصة أصلا من العنوان، أنتم الفلسطينيون تحشرون فلسطين في الصلاة والحج والغناء والدبكة والمسخّن والمقلوبة وحتى في القصيدة الإباحية، تتباكون من ظلم الغريب

والقريب، حلّوها يا عمي وخلصونا من هالمصيبة، العمى شو راسكو يابس."

شو بدنا بالطويلة، خلينا بالقصيرة، المهم قامت الدنيا عام 1992 حين نُشر كتاب نتنياهو(مكان تحت الشمس) في لبنان، وقررت الحكومة الرشيدة جمع النسخ من المكتبات بلمح البصر، لكنني كنت أسرع، فاحتفظتُ بنسخة.

ذات درس تفسير للقرآن تلاسنتُ مع الشيخ حول الآية(ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم).

رفعت صوتي:" أمي تحتفظ بسندات التمليك، هي أرضنا، توارثنا ملكيتها أبا عن جد، بِحلال مالنا وعرق الجبين، فكيف يكتبها لهم، كيف يكتبها لهم؟

قدّر الشيخ عواطفي المنفعلة، فهدهد كتفي بصوت رحيم يقطر خشوعا" استغفِر ربك يابني، كتبها لهم لأنهم آنذاك كانوا المؤمنين، وأنتم كنعانيون وثنيون"

لا أدري كيف نفضت يده عن كتفي، ووقفت صارخا" هو هو قال على لسان الأوغاد(إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) أيُّ سند ملكية أصدق من هذا الإثبات الإلهي!؟

فابتسم ابتسامة بلهاء يرطب بها الجو" ما تتحمقش أوي كده، الأمة كلها على باب الله، أنا مثلا، سايب عيالي في مصر، وجاي اشتغل هنا، أفرق إيه عنك ؟

وخلصت القصة.

الآن سينبعص كَيف البعض ويقول: يا أخي وما علاقة كتاب نتنياهو بالموضوع ؟

يا سادة: نتنياهو يحتج بآيات القرآن في كتابه لإثبات أحقيتهم الشرعية جدا والإلهية جدا بفلسطين، وأنهم المظلومون الودعاء في مقابل الذباحين العرب والمسلمين، وأن الله نصرهم لأنهم شعبه المختار المدلل المدلع أخو الستين قحبة.

واللهم إني كنت صائما.

****

التدين الكرنفالي

أحسد الدلاي لاما، وهو يقبع في صومعته المعانقة للسحاب، يناجي مَن يعبده، بسكون تقوى خاشعة.

أحسد الراهبات في المستشفى، ودور الرعاية يعملن بصمت، يبلسمن جراح المتألمين ببسمة عذوب.

وعلى العكس نلحظ التدين الكرنفالي:

** صبيحة العيد قُرع بابي، فإذا بشاب يُعرّف عن نفسه:" أنا المسحراتي، كل عام وأنت بخير".

كان من اللياقة والواجب أن يدفعني وقاري إلى الابتسام في وجهه، وإكرامه على مجهوده المضني، ولكن في الحقيقة لم يبق عندي وقار. أسمعتُه كلمات مؤنبة تليق بمزعج، فرض نفسه على الحي كله، دون تكليف من أحد. أهبل يحدد لك ساعة السحور غصبا عنك وعن الحي كله، يوقظك على وقع الدربكة تمام الساعة الثانية، مع أن الفجر يحين عند الخامسة.

كرنفال عباداتي مؤذ لا معنى له في زمن المنبهات الساعاتية والهاتفية، تدغدغ سمعك بنشيد نبوي أو جمال صوت مؤذن الحرم، او سيمفونية بتهوفن التاسعة.

في المدينة الواحدة بل في الحي الواحد، تتلاطم من المآذن آيات مختلفة من القرآن، لا تفهم منها شيئا، يتبعها أذانات متعددة، يجاكر بعضها بعضا، تفصل بينها دقائق تطول أو تقصر حسب قناعة المذهب الديني المرموق، الذي يعتبر أذانه في وقت أذانك تنازلا عن ثوابت الدين، وذنبا لن يغفره الله له.

** يحلو لِمُعاق دينيا أن يفصع طيزه، مُصلّيا على رصيف مكتظ بالمشاة، أو ربما في طريق السيارات، حرصا منه على ألا تفوته صلاة فيشويه الله في جهنم.

** يبالغ أحدهم في تقصير سرواله الشرعي وتحديد لحيتة فيبدو مربع الوجه، تراه ينظر إليك شزرا نظرة احتقار لا لشيء إلا لأنك تلبس الجينز وبلوزة تتوسطها صورة غيفارا، وتقص شعر رأسك قصة المارينز او القزع.

** تقطع ثلة من الصبيان الطريق، تعرقل السير، وتتسبب بزحمة خانقة، تصل بسيارتك إليهم فتجد أحدهم يمد نحوك صينية ملبس، احتفالا بالمولد النبوي الشريف.

** تتزين مداخل البيوت والعمارات السكنية بأقواس من أغصان مسروقة مُشلّخة بعنف يقتل الشجر من بستان أحدهم، تتوسطها لمبات ملونة ويافطة كبيرة تصرخ (حج مبرور وسعي مشكور). وحين يصل الحاج المغفور الذنوب، كيوم ولدته أمه، يلعلع الرصاص، وقذائف الآر بي جي، وتولول الخراف الممدة للذبح.

** عيد الأضحى يصبح عيد اللحم، فلا عيد بلا ذبيحة سليمة من كل عيب، سرعان ما تقطع حسب سنة الرحمن، وتلقى أحشاؤها قرب الحاويات حسب سنة الشيطان، ولك أن تهنأ بعطر العيد المتعفن، والذباب الراقص حول الجلود.

تديّن مظهري، وكرنفال مزعج قميء يُنفّر ولا يُبشر، وربما يُكفّر.

****

الربيع الباكي.

لم أتجاوز عشر سنوات حين حضرتُ أول خطبة جمعة، يومها قال الخطيب كلاما كثيرا، لم أعقِل منه إلا فتوى لذيذة (يجوز للمار من قرب بستان أن يقطف ثمرة تشتهيها نفسه، ويُكتب الأجر لصاحب البستان).

تملّكتني الفتوى، ورحت أبلّغها لرفاقي في الصف، فأعجبوا بها أيّما إعجاب،لدرجة أن أحدهم صفّق قافزا من شدة الفرح، وقرر من فوره المداومة على صلاة الجمعة.

ولأن ربيع بعلبك يأتلق باللوز الأخضر والقرعون والجَرَنك فقد عقدنا العزم على إكساب صاحب البستان القريب حسنات كثيرة.

سمع أخي الأصغر بالخطة فألح عليّ كي أصطحبه معي، رغم أن الأتراب عادة يرفضون صحبة الأصغر منهم سِنًا، لكنهم استثنوا أخي إكراما للفتوى الرائعة التي بشّرتُهم بها، والتي اعتبروها هدية ثمينة واجبة الرد. إلا أن صديقي المقرّب علّق هامسا:أخوك قرد ملفلف، هوايته الفضلى تَسلّق الأشجار، فانصحه.

هززتُ رأسي موافقا وأنا أحدث نفسي: "كيف أُفوّت فرصة الاستفادة من خبراته التسلقية حيث الحبات السِّمان؟".

يوم العطلة هو الأنسب، فيه تنفرج الأسارير والقسمات احتفالا بالتحرر من سجن كريه يدلعونه (مدرسة).

فكيف إذا اجتمع العيدان والفرحة فرحتان؟!

سمعتُ خشخشةً تنساب من جيوب رفاقي فابتسمتُ لأن الله حباهم ما حباني من فطنة تمثلت في تخبئة كيس ورقي.

انتشرنا كالجراد مسارعين في الخيرات، نَجرد الغصن المثقل بالطيبات جردا، ندس حبات منه في الكيس، ومثلها في أفواهنا المنمنمة، الشبيهة بحبات اللوز، وكنا على يقين بأن الملائكة تلهث على الكتف الأيمن لصاحب البستان، الذي شعر لحظتها بوخزات متتالية في كتفه، جعلَته ينطلق كالصاروخ نحونا، يسبقه صراخه والوعيد المطعم بالشتائم.

بسرعة البرق تفرقنا أيدي سبأ، وابتلعتْنا البيوتُ، كهفُ الأسرار ومخبأ اللوز الأخضر.

لاحظَت أمي ارتباكي ولهاثي فسألتني صارخة:" وين أخوك ؟

ـ هناك هناك، أخي فوق الشجرة.

****

ما هي وظيفة الدين ؟

مع كل منشور يتعلق بالدين ودوره في الحياة تتهاطل التعليقات المتضادة والمتحاربة بين جعل الدين سببا في التخلف، أو كونه دافعا للتقدم. فريق يستشهد بعلماء مسلمين أشرقت شمسهم على الغرب، كالرازي وابن سينا وابن رشد الخ... ويستشهد بوجود دول إسلامية صناعية وقوية كتركيا وماليزيا وإيران وباكستان وسنغافورة.

وفريق يضرب المثل بباقي الدول الإسلامية المتخلفة وهي تشكل الغالبية العظمى.

هناك خلط كبير في المفاهيم:

1 ـ الربط بين الإسلام والمسلمين، فيصبح المليار ونصف كلهم مسلمين رغم انقسامهم إلى مذاهب وأحزاب وحركات متكافرة متنافرة، بعضها مسالم وديع، وبعضها يحمل سيف التكفير والإلغاء للمخالف، مسلما كان أو غير مسلم. دون وجود معيار محدد يتم الاتفاق عليه، لأن الفرق كلها تدعي امتلاك حقيقة الإسلام وجوهره المطابق للكتاب والسنة، لذا نفتخر بابن سينا والرازي واحمد زويل وحسن كامل الصباح كمسلمين بينما قد يكونون في الحقيقة ملحدين.

وحين تقوم داعش بعملية ـ تراها من منظورها جهادية محقة ـ يسارع الغرب والشرق إلى شجبها واتهام الإسلام بالإرهاب، وكذلك يسارع المسلمون إلى التبرؤ منها، فهي لا تمثل الإسلام، ومع ذلك يرفض الأزهر وصمها

بالكفر، بل هي مسلمة ولكنها مبتدعة، تماما كما وصف القرضاوي الشيعة.

2- دولة إسلامية: مفهوم خاطئ ومصطلح تعميمي مخالف للحقيقة، فلا وجود لدولة إسلامية بل هناك مواطنون يدينون بالإسلام، يعيشون ضمن دولة ونظام له ارتباطاته بالدول الأخرى، ويقيم علاقاته معها على أسس سياسية، ومصالح اقتصادية غير منطلقة من الإسلام كدين، فتركيا حين تقيم علاقات دبلوماسية مع اسرائيل لا تنطلق من أوامر الدين الإسلامي بل لتحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية. وباكستان حين تمتلك القنبلة الذرية فهي لم تفعل ذلك إلا لحماية ذاتها ووجودها ضد الهند المتربصة بها، لا لحماية الإسلام والمسلمين الذين ذُبحوا ويذبحون في بورما والبوسنا والهرسك وفلسطين واليمن والعراق الخ... ولم تُحرك ساكنا بل ولم تشجب ذلك.

والسبب بسيط لأن التدين صفة للفرد المتدين، لا للمجتمع ولا للدولة، بدليل إباحة تصنيع الخمور والاتجار بها في تركيا وتونس ومصر وسوريا كمثال فقط.

3 - الإسلام دين ودولة: فهو ليس علاقة فردية عمودية بين العبد وربه، بل أفقية جماعية حزبية، هدفه بناء الدولة الإسلامية، بل وحُكم العالم.

هنا يطرح سؤال جوهري، لإن الإجابة عليه تختصر كل ما يعانيه المسلمون في العالم:

ما هي وظيفة الدين في الحياة ؟

هل هو منهج يلتزم به أتباعه، يعتمد على نظريات ومبادئ ومثل إنسانية سامية(العقائد الإيمانية) تهدف إلى تهذيب الإنسان نفسيا وروحيا بالعبادات الشعائرية

والتشريعية، وتدعوه إلى الخلق الحسن والقيام بصالح الأعمال كترجمة حقيقية تعكس صدق الإيمان.

كما يُعرّفه جميع المنظرين للأديان.

أم كما زاد عليه المتأخرون أن أهم أهدافه بناء الدولة الإسلامية كمقدمة اولى لتحرير العباد من عبودية العباد، وتعبيدهم لرب العباد فقط، في خلافة إسلامية عالمية؟

ولنا أن نسأل: لماذا نشهد الحروب الإثنية، والأهلية الطائفية بل والمذهبية، إذا كان الدين بهذه السماحة والوظيفة المثلى؟

الجواب بسيط: لأن رجال الأديان السماوية، شرحوها ودللوا عليها من كتبهم السماوية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وقرروا فيها مقولات يرونها من صلب الدين، مَن أنكرها هدَم الدين:

ـ ديني هو الحق وما عداه باطل، أو أنه كان حقا ثم تمّ تحريفه.

ـ ديني عام شامل للبشرية كلها وصالح لكل زمان ومكان حتى قيام الساعة.

ـ رسولي هو خاتم الرسل، فلا يعترف اليهود بالمسيحية ولا يعترف المسيحيون بالإسلام.

فإذا حصرنا الدائرة بالإسلام نجد المذاهب والحركات والأحزاب تقول:

ـ مذهبي هو الحق، وما عداه باطل، اعتمادا على عقائدي وعباداتي وتعاليمي المستمدة من شروحات علماء مذهبي أنا للكتاب والسنة.

ـ الإسلام دين ودولة.

ـ مباحث أصول الفقه وعلوم القرآن ومصطلح الحديث عندي هي الأصوب، وعليه تم الاختلاف حول ما يلي من مباحث علوم القرآن:

آيات القرآن المحكمة والمتشابهة /المكي والمدني من الآيات /أسباب النزول / المترادف وغير المترادف/المنطوق والمفهوم/الناسخ والمنسوخ /المطلق والمقيّد/

العام والخاص.

وفي أصول الفقه اختلفوا حول عدد أدلة الأحكام الشرعية ونوعها.

والخطير في الأمر أن تطبيق الأحكام على أرض الواقع تم بناءً على الفهم الخاص لكل مذهب وحزب، فنشأت مصطلحات ومفاهيم تمت ترجمتها واقعيا:

الحاكمية(المودودي وسيد قطب).

المجتمع الجاهلي(سيد قطب وجماعة التكفير والهجرة).

ولاية الفقيه(الخميني).

الإسلام دين ودولة(المودودي/الإخوان المسلمون وجماعات الإسلام السياسي...)

واحتدم النقاش حولها كلها، خاصة حول مفهوم الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية، بل شكك البعض بالخلفاء الراشدين، والدولة الأموية والعباسية والعثمانية الخ..

هذه المعمعة الفكرية العقائدية هي السبب في ما نشهده اليوم من تخبّط واشتباك وتشابك وتشرذم وارتداد...

الحل بسيط جدا في نظر دعاة الإصلاح والتنوير، يتمثّل بفصل الدين عن السياسة، ويمكن أن يكون الدستور والقوانين متوافقة مع القرآن والسنة من حيث العدالة والمساواة الخ...

وحصر وظيفة رجال الدين في المساجد للتربية الخلقية، وتزكية النفس والروح، فهل سيقبلون ؟

أشك في ذلك، لذا فالانـهيار سيستمر.

****

نرفزات رمضان

ما نراه بأم العين من سلوكات الصائمين يجعلني أقرر بثقة أن الآية التي تخيّر المسلم بين الصوم وبين دفع الفدية (إطعام مسكين) لم تنسخ بالآية التي تليها. ذلك أن المولى عز وجل يعلم ما كان وما سيكون من حال الصائمين العصبيي المزاج، وسأترك لكم ذكر بعض سلوكاتهم.

انا سأكتفي بذكر العصبية اللافتة التي تطبع تعليقات بعض الفيسبوكيين، الذين يخرجون عن طورهم ويشخصنون النقاش الهادئ العلمي الرصين، متهجمين على الكاتب، أو على بعض المعلقين، متناسين أن رفع الصوت وانتقاد الشخص دون نصه، ليس من صفات المؤمن الحق، ولا يبيحها له كونه صائما متشوقا للسيجارة وفنجان القهوة.

الصوم عبادة تعلمنا الصبر والورع وحسن الخلق وليس العكس.

وإذا كان الصوم سيؤدي إلى مفسدة التعصيب والتنمر وتوسيخ اللسان والقلب فقد خرج عن هدفه، والأولى لهذا النرفوز النزق أن يطعم مسكينا بدل الصيام أو ينزوي في بيته نائما طول النهار، لأن نوم الظالمين عبادة.

****

مع وقف التنفيذ

منذ خمسة عشر عاما ومجموعتي القصصية الثالثة تحت الطبع.

بين العام والعام يسألني المطبعجي: هل نطبع؟ فأقول:لا، القصص قيد التنقيح.

مللتُ التنقيح ومل المطبعجي سماعها.

أقرأُ قصة من قصص المجموعة يتباهي البطل فيها "نموت واقفين ولن نركع" فأسمعه هو هو في برنامج حواري، وبكامل الأناقة يفسّر (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) فأتوكل على الله وأشطب القصة.

القصة الثانية تحشد متظاهرين حاملين لافتات المقاطعة العادلة الشاملة، فتُنبهني ابنتي: انظر إلى التلفاز، الأعلام تتهاوى، والأيدي تتصافح والأنوف تتلامس.

أم عوض التي كانت تُكسّر الصخر حجارةً مقذوفة، تتبختر الآن بثوبها المطرز وفي يدها برتقالة من يافا. وأبو عوض المدمن على القهوة المُرة والتبغ العربي يضع على الطاولة أمامه علبة مارلبورو ويمزمز الكابوتشينو في مقهى النسيم بحيفا.

ضرغام يا أهل الله، ضرغام الهِزَبر الأَنوف في القصة كان يفاخر بأنه رهن الإشارة لمَن أراد أن يقاوم أو أراد جَسورا، اليوم حفّ لحيته وشاربيه،وربط شعره المتدلي على قفاه كذنب الحصان بِبُكلة مزركشة، وصرت تسمعه يُغنّج اسمه:دُوري.

حتى زوجتي، فلقد فاخرتُ في قصة الطابون أنها كانت تُشوى أمام الفُرنيّـة تُقمّر الأرغفة، وتحمّر صواني الدجاج المُربّى منزليا، تتأفف اليوم في ثرثرات الضحى من رائحة الطبخ والنفخ، تنصمد أمام المرآة، تنتقي أحمر الشفاه المناسب لحذائها، ثم تلف رِجلا على رجل وتلعب الببجي، دون أن تنسى واجبها المنزلي اليومي فتتصل بمطعم المناسبات مشددة على كلمة ديليفري، ثم تبتسم لي ابتسامة مضمومة كي لا يسحّ (الرُّوج).

خالتي التي مثل أمي كانت تروي لجاراتها وتغلظ الأيمان بأن ابن أختها، الذي هو أنا، يصل الرحم ويعتبر زيارتها الأسبوعية فرض عين، والاتصال اليومي بها سنة مؤكدة،اليوم هي التي تتصل بي وتطلب تأجيل الزيارة الرحمية متعللة بكثرة الأشغال، وتكتفي بإرسال رسالة واتسأب مشفوعة بإيموجي القبلات على الخدين.

كدت أنتهي من تنقيح قصة الزعيم المفدى الذي كان يُرعد ويُزبد مهددا متوعدا، واعدا الجماهير الكادحة بالنصر القريب لولا أنني رأيته يقف أمام الباب العالي ينتظر وينتظر كي يُسمح له بالدخول.

اعذروني لحظة كي أردّ على الهاتف:

++ ألو.. كيفك أستاذ؟ انقضى العام، هل أتممت التنقيح كي نطبع ؟!

**** لـعَمْ.**

****

حبة فرح

منهمكا في النسخ كان رفيقي زكي. سرعته في ملء صفحات الدفتر لفتت نظري، فلا المعلم طلب منا نسخ درس القراءة، ولا فُرض النسخ على زكي عقابا له على تقصير ما.

قرع الجرس معلنا نهاية اليوم الدراسي، فحشرنا الكتب والدفاتر في الشنط كيفما اتفق، وخرجنا هازجين فرحين بالانعتاق. وحده زكي حمل الشنطة بيد، ودفتره المتخم بالحروف باليد الأخرى.

ـ ليش مبسوط هلقد؟ وليش خربشت الدفتر كله؟ سألتُه.

ضحك قائلا: تعال معي.

قادني نحو دكان محمد الحسن. ناوله الدفتر، فدسّ في كفه الصغيرة حبة حلوى.

تحليل الموقف لم يستلزم مني كبير ذكاء، جعلني أنال في اليوم التالي حبة حلوى مماثلة من صاحب الدكان.

لم ندرك يومها أن صفحات الدفتر البيضاء المطعونة بخربشاتنا، كانت أغلى من حبة الحلوى، لكننا تأكدنا بعد أن شطبنا السنين أن محمد الحسن لم يكن بحاجة إلى دفاترنا.

****

الفضول المتديّن أو (التديّن الفضولي)

في كل مرة يموت فيها علم من الأعلام، في الصحافة أو الإعلام، في التمثيل/الفنون / العلم/ الفلسفة أو حتى في فن الطبخ والحلويات يهرع المسلم الملتزم إلى غوغل، أو يترصد المنشورات باحثا عن دين المتوفى، حتى يُعلّق على المنشور مُترحما عليه إن كان مسلما، أو يروح يبحث عن جملة ذكية بارعة تتجنب الترحم والاستغفار له إن كان غير مسلم، مثل: لروحه السكينة، أو لروحه السلام الخ...

وتقع الواقعة التي ليس لوقعتها كاذبة، الخافضة الرافعة، إذا وقعت عين المتعصب دينيا ـ دون علم أو فهم ـ على منشور يترحم على غير المسلم ويستغفر له، فيفتح نقاشا جادا حول جواز الترحم عليه أو عدم جوازه.

تسأله: لماذا تفتي بغير علم هاهنا، وتُنصّب نفسك قاضيا عالما بالدين وتفاصيله، بينما أنت لست مؤهلا لذلك، ولماذا لا تترك العلماء يخوضون في الموضوع، ولماذا إذا نشر أحد المفكرين رأيا أو اجتهادا في الدين كمحمد شحرور مثلا، تسارع إلى رفع الصوت والسوط في وجهه: " أنت مهندس ولست رجل دين، واترك الاجتهاد لرجال الدين العلماء الذين أفنوا حياتهم في البحث والتمحيص مُحتجا عليه بالآية(فاسألوا أهل الذكر...) ؟ تناقض صارخ بل فاقع.

هل أنت من أهل الذكر؟ وهل تعلم أن المقصود بهذه الآية علماء اليهود والنصارى، لا علماء المسلمين بعد الصحابة والتابعين؟

ولو فرضنا أنك عرفت بأن المتوفى مسلم، فهل عرفت إلى أي مذهب ينتمي أو أية حركة أو حزب ممن تكفر بعضهم وربما كلهم؟

من أعطاك الحق بإدخال الجنة من تشاء وإدخال النار من تشاء؟ هلا شققت عن قلب المتوفى؟

الله يقول (وسعت رحمتي كل شيء) وأنت تعاند وتُفصّل الرحمة على مزاجك.

الله يقول (يُدخل في رحمته من يشاء والظالمين أعد لهم عذابا عظيما) وأنت تحدد من هو الظالم وغير الظالم.

الله يقول(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (27).

وأنت تسارع إلى تكفير أهل الكتاب، وتصفهم بالشرك، بينما هم موحِدون بحسب فهمهم الخاص لطبيعة الإله الواحد ذي الأقانيم الثلاثة.

هل حضرتك موحِد تؤمن بأن الله ليس كمثله شيء؟

ستسارع إلى التأكيد بنعم.

إذن كيف تُجسم الله وتشبهه بالبشر حيث تثبت له اليد والقدم والوجه، والصفات البشرية، وتؤمن بأنه في مكان محدد ذهب الرسول إليه في رحلة المعراج؟

تحتج بالآية(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم).

هذه الآية خاصة بحادثة وقعت للنبي بعد وفاة عمه، تؤخذ بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وإلا أتحنا لأنفسنا أن نطبق هذه القاعدة على جميع آيات القرآن ونحن نعلم بأسباب النزول أو بدون علم.

ثم لدي تساؤل:هل إذا ترحمت على غير المسلم او استغفرت له، تُجبر الله على أن يرحمه ويغفر له؟

كيف نؤلف قلوب غير المسلمين ونحبّبهم في الإسلام إذا كنا نبخل عليهم بالترحم على ميتهم، ونتوعدهم بالعقاب الأليم وبنار الجحيم؟

أين الرسول الرحمة المهداة من هذا التفسير الذي نقحم أنفسنا فيه.

هل قرأت الآية الجامعة المانعة التي تترك إلى الله أمر الفصل بين أصحاب الملل والنحل يوم القيامة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) الحج.

هل سألت نفسك لماذا لم يذكر الله المسلمين والمنافقين في الآية ؟

لم يذكرهم لأن المسلمين والمنافقين موجودون في جميع الديانات المذكورة في الآية.

أرجو أن يهتم كل إنسان بعمله ووظيفته ويربي عياله تربية خلقية صالحة، ويُعفي نفسه من الخوض في أمور الدين والتحليل والتحريم، والجائز والممنوع، تماشيا مع

ما ينادي به هو أن نترك ذلك للعلماء الافذاذ ذوي الخبرة الطويلة والبحث المُضني.

****

ما الذي يحدث للبشر؟

كيف يصبح التناقض العمودَ الفقري لشخصية الإنسان؟

يصبح مؤمنا ويمسي كافرا، وهو هو لم يتبدل.

يمجد العلمانية مرة ويضع مقاليد الحكم بيد رجل الدين مرة أخرى.

يُنظّر للديمقراطية في العالم كله، ويحرّمها على بلده.

يردد أنه مستعد للاستشهاد في سبيل حرية الرأي، ويغضب حين يبدي أحد رأيه.

يسطّر الصفحات منكِرا عصمة غير الأنبياء، ويثبتها لزعيمه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يطالب بمحاربة الفساد والفاسدين في السلطة الحاكمة خارج وطنه، لكنه يرفع عقيرته صارخا: زعيمي خط أحمر.

يلبس ثوب التقى في الطريق، ويخلع ثوب الحياء خلف الكواليس.

ينتقد قناعا يخفي العيوب، وخزانته متخمة بالأقنعة.

يأمر الناس بالبر وينسى نفسه.

مقالاته تقطر إنسانية، وأنيابه تنزّ دما بشريا.

تدمع عيونك وأنت تقرأ حروفه عن التواضع وخفض الجناح، بينما ريشه الطاووسي يطمسها.

يفاخر بحرية التعبير وهو يشحذ المقص للرقيب.

تصح فيه أبيات تُنسب لأبي الأسود الدؤلي:

يا أيها الرجل المعلم غيره

هلا لنفسك كان ذا التعليم.

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى

كيما يصح به وأنت سقيم.

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها

فإذا انتهت عنه، فأنت حكيم.

فهناك تعذر إن وعظت ويقتدى

بالقول منك، ويقبل التعليم.

لا تنه عن خلق وتأتى مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم.

****

جمع سواك

في درج الهدايا عندي عشرون سواكا مغلفا بالنايلون لم أستخدم منها واحدا قط.

أعرف سلفا المواقف من تصرفي ومن مقالي هذا.

كما أعرف الأحاديث التي تحض على السواك.وقرأت بعض الدراسات والتحاليل المخبرية المعاصرة حول المواد المفيدة للثة والمانعة للتسوس الكامنة في عود الأراك (السواك).

هذا كله صحيح ومفيد ولكن قبل اكتشاف فراشي الأسنان والمعجون.

سنة السواك دليل أبدي على صحة نبوة الحبيب المصطفى (ﷺ)وسبق طبي علمي تفرّد به الإسلام بين معاصريه من أديان ومذاهب. ولكنها سنّة قابلة للتطوير والتجديد مثل أية أداة تنظيف أو مواد تنظيف.

مستخدمو السواك اليوم قلة نادرة رغم أنه صار تجارة رابحة للزارعين والتجار ورغم أن الحجاج والمعتمرين يتهافتون على شرائه كهدايا مباركة.

إن قلّة استخدامه ليست ناتجة عن موقف مضاد لتطبيق السنّة، بل لصعوبة تنظيفه بعد استخدامه. ولأنه يحمل الجراثيم والميكروبات نتيجة وضعه في الجيوب دون علبة حافظة.

إذا أردنا المحافظة عليه كسنّة فيمكننا استخدام فرشاة الأسنان والمعجون أولا ثم استخدام السواك بعد ذلك طبعا

مع وجوب تنظيفه قبل وضعه في علبة محكمة تحجب عنه الغبار والجراثيم٠

وأقترح على علماء الغرب (الكفار) أن يصنعوا لنا معجون أسنان من المواد المفيدة المذهلة المتوفرة في عود الأراك فسيربحون المليارات.

أو يطحنوه ويصنعوا منه فراشي أسنان قابلة للتنظيف بسهولة. سيخسر باعة السواك المنتشرون على أرصفة مكة والمدينة ولكن لا خوف عليهم فهم قادرون على إيجاد البدائل لأن الحجاج والمعتمرين الكرام يشترون كل شيء بل أي شيء.

وحتى لا يبحث أحد فجمع سواك هو سوك أو مساويك.

واعذرني يا سواك إن استخدمت سواك.

****

التفخيم والتعميم.

هل غير العرب ينهجون هذا النهج؟

لست أدري، ولكن ما أنا متيقن منه بحسب خبرتي المتواضعة علما ومعايشة يثبت مبالغة العرب في التفخيم والتعميم.

تتردد في حياتنا اليومية وفي الكتب التراثية والمعاصِرة عبارات على سبيل المثال لا الحصر:

1 ـ السلف الصالح: فمَن المقصود بهم وما عدد القرون الأولى التي يشملها هذا الوصف؟ وهل جميعهم كانوا صالحين؟ وهل لكل مذهب سلفه الصالح، أم العبارة تشمل جميع المذاهب والفرق الإسلامية؟

لو توقف الأمر عند إطلاق العبارة لهانت المسألة، ولكن التفخيم والتعظيم بل والتقديس أحيانا يشملهم جميعا عند بعض المذاهب.

2 ـ (إجماع العلماء) (إجماع الأمة) أي انعقد الإجماع على هذا الحُكم أو هذه المسألة الشرعية. فمن هم العلماء وما هي درجاتهم العلمية؟ ومن الذي وزع عليهم هذا الوصف الجميل الفخم المعظم؟

3 ـ (السُنّة المطهرة) فهل كل كتب الحديث يشملها هذا الوصف؟ علما بأن بعضها إن لم يكن معظمها يضم أحاديث موضوعة وضعيفة. علما أيضا بأن لكل مذهب سنّته المطهرة. وكلها تلبس عباءة القداسة والتعميم. ومثلها (السيرة العطرة) وفيها من أهوال الوصف والسرد ما لا يليق بالنبي وصحبه الكرام.

4 - (الصحابة الأطهار أو الأخيار) ولكل مذهب صحابته الأخيار المنتجبون المعظمون، وقد يذم صحابة الفرق الأخرى.

وتتوسع عباءة التفخيم والتعميم لتشمل الرعيل الأول من علماء اللغة والعلوم الطبيعية والشعراء الفطاحل الأواخر والأوائل، فتكال لهم عبارات الثناء والتبجيل، لدرجة أنه تكَوّن في عقلنا العربي الجمعي فكرة مفادها أنهم من العظمة بحيث كانوا مرجعا للحضارة والتقدم، وأنهم شبه مقدسين، إذ تشعر بالضيق مثلا إن انتقد شخص ما الإمام الشافعي أو أبا حنيفة أو سيبويه، الذي أدرجناه في مثَل سائر بين الناس(مفكر حالك سيبويه؟). وعليه يصبح المتنبي شريف مكة، ولا يُصدق أحدنا أنه ادعى النبوة وربما كان يعاقر الخمرة ولا يصلي. ويصبح المعري فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة ومُعلّم دانتي، علما بأن شعره في معظمه لا شعر فيه، وهو مجرد نظم. ويغدو الغزالي معلم ديكارت، وابن رشد المؤثّر المفصلي الحاسم في إرساء أسس التفكير العقلي لدى الغرب، وكتب الخوارزمي ما زالت تدرس في جامعات أوروبا، اي كتب وما هي الجامعات؟

ونقرأ عن صناجة العرب/ أمير الشعراء/ أمير البيان/ كوكب الشرق/ الفتوحات الإسلامية/ عميد الأدب العربي.

وفي المقابل يتم تعميم السوء والفحشاء والمنكر على المخالفين في المذهب والدين:

(الغرب الكافر)علما بأن فرنسا وحدها تضم حوالي 5 مليون مسلم.

الغرب المادي، والغرب المنحلّ الذي يرتكب الزنا والشذوذ وشرب الخمر، علما بأنها فعلا مباحة هناك

ولكنها مقننة بقوانين صارمة إذا أضرت بالغير. بينما في بلادنا اليعربية مثلها وأكثر عددا، بل وما هو أفحش منها ولكنه يمارس سرا وخلف الأبواب المغلقة.

(الجاهلية الأولى) فكل ما قبل الإسلام جاهلية، ويتساءل المرء: هل الدين ينزل لجُهال، ألم يكن الرسول والصحابة الأوائل من ضمن هذا المجتمع الجاهلي؟ وهنا يسارع المرقّعون كالعادة إلى تأويل اللفظة بأنها جاهلية بمعنى عدم الهدى والرشاد لأنهم في الحقيقة كانوا أئمة البلاغة والبيان وكانوا يتصفون بكل صفات المروءة والكرم وإغاثة الملهوف. وان الإسلام جاء يحررهم من عبادة الأصنام وينهاهم عن وأد البنات، تلك الفعلة التي كانوا يشنعون بها عليهم وكانت تضحكني، إذ لو كانت منتشرة بكثرة لانقرض العرب الأقحاح، وليتهم فعلوها ولم يشهد أجدادنا ما نشهده اليوم من إذلال وقهر واستعباد.وكان سهلا جدا إطلاق وصف أكثر تهذيبا على جدود المسلمين الأوائل.

تقديس وتفخيم وتعميم إن دل على شيء فإنما يعكس عقدة النقص التي تلازمنا منذ القِدم أمام الغير المتقدم والمتمدن، ونتباهى بها كتعويض نفسي لا أكثر.

****

المشاهير والقداسة.

شغلني هذا الموضوع مذ وقعت عيني على غلاف مجلة صباح الخير المصرية عام1966، كان لي من الأعوام دزينة، فسألتُ والدي:" لماذا شنقوا سيد قطب؟"

** " لأنه ضد عبد الناصر. "قالها وصَمت.

جملة كانت آنذاك كافية لإدانة المشنوق كائنا من كان، ولو حتى نبيا.

وفي المعهد ترنمنا على قصة أصحاب الأخدود الذين قُطعوا بالمناشير ورفضوا الارتداد عن المسيحية.

وقصص نادرة أخرى عن مشاهير تشبثوا بمبادئهم وقتلوا بسببها. ولكن هل هذا يجب أن ينسحب على المبدعين وسدنة الرأي والحرية والإنسانية جميعهم؟

لقد توارث البشر كل البشر حب المشاهير من أبناء وطنهم، مجّدوهم ونسجوا حولهم الأساطير، ولكن هل كانوا ثابتين على المبدأ فعلا كما نُقل إلينا؟

من يدري؟ ومن تغلغل إلى أعماقهم ليدرك سبب ثباتهم؟

هكذا مرة أخرى نقع في التعميم والشمولية وحتى العصمة. فالشاعر والفنان والمُعارض السياسي ورجل الدين الخارج من دائرة القطيع والتقليد، يجب أن يثبت على المبدأ الذي نادى به نظريا وطبقه عمليا حتى الاستشهاد كما فعل سقراط، دون البحث عن دوافعه الشخصية الفعلية.

نتناسى هاهنا أن التعميم خطأ، وأن ظروف المشاهير والمصلحين في العالم تختلف باختلاف أنظمة الحكم، وعادات الشعوب وتقاليدها، وباختلاف تأثير المبدأ على الحاكم وعلى المؤسسة الدينية، وعلى العرف السائد، وأننا نقبل نصيحة السكّير لولده بعدم السكر وإن كان هذا يعد نفاقا، فلعل الولد يمتنع.

نعم أنا أقر بأن على حملة الفكر والقلم واللسان المثالي المبدئي أن يكملوا الطريق حتى النهاية طالما أنهم بدأوه مختارين، وألا يتذبذب عطاؤهم ونضالهم ويتلون بألوان متناقضة، ولكننا ننسى حقيقة جوهرية أنهم بشر، يخافون ويألمون، يتشبثون بالحياة كما نتشبث، ويخافون على أنفسهم من أقبية التعذيب، والمطاردة والنفي والتشريد، ويخافون أكثر على أبنائهم وعيالهم وأقاربهم، ومصدر قوتهم جميعا.

قد يلومهم البعض "كان عليهم الا يخوضوا غمار السير عكس التيار منذ البداية".

ولكنها تكون دعوة للتخاذل والتنصل من المسؤولية الملقاة على عاتق المثقفين والمفكرين في التوعية والتربية والإصلاح والتغيير والتطوير.

وننسى أن المناضل الثورجي في فرنسا يعيش ظروفا لا يعيشها أمثاله في جمهوريات الموز والبن وممالك القهر العربية.

نعم هو ليس شجرة، ويمكنه الهجرة إلى بلد أكثر أمنا وديمقراطية وحرية، ولكن من يضمن ألا تصل إليه أذرع المخابرات الممتدة(الصادق النيهوم كمثال).

ما الحل إذن؟

من وجهة نظري أرى أن يتحلى المناضل بالوعي للظروف المحيطة به، وأن لا يحمل السلم بالعرض وحده، فهو لا يملك من الأسلحة إلا اللسان والقلم، وألا يسمي الأشياء بأسمائها، كما فعل ابن المقفع ـ لا لا هذا أكل خازوقا وأُحرق في التنور، ولا يصلح كمثال هنا ـ يجب عليه ألا ينتمي إلى أي حزب موال أو معارض وألا يتأدلج بأي ايديولوجيا، لانها تحشره ضمن دائرتها وعليه أن يتحمل النتائج لأن السلطة تلزق بالكرسي، وتحرق سُلّاف من ينظر إليه حتى نظرة حسد، وتُكرّس مقولة أحد الديكتاتوريين البلغاء خفيفي الظل(من ليس معي فهو ضدي).

لماذا لا ينهج نهج محمود درويش مثلا فيكرس شعره للقضية ولها فقط، فيُسجن ثم يُطرد فيحتضنه ابو عمار،

ويسمع قصيدته البليغة ملك التفاوض، ثم يبتسم ويصفق له، ويمضي في نهجه مرددا بيت شعر لأحدهم(فنحن يا سيدي منذ عشرين عاما نقول كلاما ويبقى الكلام كلاما).

إذن درويش أيضا استثناء شاذ، والشاذ لا يُقاس عليه.

حسنا لماذا لا يفعل الشعراء ما فعله نزار قباني، مسح الأرض بالأنظمة وبالأمة وهو يدخن السيجار في قصوره المنيفة في لندن وبيروت؟

لا لا نزار كان محبوبا جماهيريا ومطبوعا على أشرطة الكاسيت، وفي حناجر المطربين والمطربات الأحياء منهم والحيّات، واغتياله كان سيقلب طاولة الأمة العربية كلها على من يفكر في اغتياله، لذا فهو نادر ندرة الزئبق الأحمر أيضا ولا يصلح كمثال.

من هو المثال إذن ؟

حقيقة لا أدري، ولكن ما أنا متيقن منه أن المناضل والمفكر والمصلح والأديب بشر وليسوا من الجن الذي يروننا ولا نراهم ويفعلون بنا ويغيرون دون حول منا ولا قوة. وليسوا ملائكة مطهرين، ولا أنبياء معصومين كما قررت الأديان.

****

مغالطات وحجج واهية

حين تسأل أحدهم:ما سبب ضعف المسلمين يسارع إلى تحميل الدول الكبرى المسؤولية وأنها تتآمر على الأمة الاسلامية لأنها لو توحدت لملكت العالم.

أولا ليس هناك أمة إسلامية، بل شعوب متخلفة مختلفة الأعراق والأجناس تدين بالإسلام ظاهريا ولا تطبقه عمليا.

ثانيا: إن تفضيلها الدنيا على الآخرة جعلها تجري وراء مصالحها الفردية وتعادي بعضها بعضا وتتحالف مع الكبار المتخاصمين أصلا. فضرب فيها الجهل والتعصب والأمية فضعفت وهي ليست بحاجة لأحد كي يتآمر عليها لأنها أهون وأصغر من ذلك.

ثالثا: حتى لو توحدت فلن تقدم ولن تؤخر لأن من يملك العلم والتكنولوجيا والسلاح والمال هو الذي يحكم.

رصاصة واحدة تفرق مظاهرة وكلب شرس يشرّد قطيعا.

****

قانون ازدراء الإلحاد.

لا، لا، ليس هناك خطأ في العنوان.

مثلما يطالب المتدينون بإقرار قانون ازدراء الأديان، وتطبيقه بصرامة وجدية، كذلك من حق الملحدين والعلمانيين المطالبة بمثله.

انطلاقا من مبدأ العدالة التي ينادي بها المتدينون، وتطبيقا لمبدأ ديني يتغنون به ليل نهار(حرية الاعتقاد)

ويستشهدون بمئة وأربعة وعشرين آية في القرآن الكريم تحث على هذه الحرية والمشيئة الفردية، وسأختار بعضها كمثال:

(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟!).

ولعل أعمقها وأوضحها هذه الآية(استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مَردّ له من الله، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا، إن عليك إلا البلاغ).

(وهديناه النجدين) أي الطريقين. المتدين اختار طريق الإيمان والملحد اختار طريق الإلحاد، وكلٌ محاسب على اختياره، فلا يحق للمتدين تسخيف فكر الملحد والاستهزاء به وازدراءه وتجهيله وتكفيره وسجنه وقتله، تماما كما لا يحق للملحد أن يفعل كل ما تقدم ضد المتدين.

من الآن وحتى نهاية العالم سيظل كل اتباع دين معين يدافعون عن أديانهم، ويعتبرونها الحق الوحيد وما دونها هو الباطل، وسيظلون ضد الإلحاد والعلمنة، ولن ينتصر طرف على طرف، مهما آمن من الملحدين، ومهما ارتد من المؤمنين، لأن الطرفين يزدادون بالتوارث أكثر مما يزدادون باكتساب العقيدة بالدعوة والإرشاد.

الحاصل اليوم أن الازدراء يقابله ازدراء أشد، والسخرية تقابلها سخرية أقذع، والتجهيل يقابله تجهيل أقسى، والإلغاء يقابله إلغاء أشمل، والحقد والكراهية يقابلهما حقد وكراهية أقوى وهكذا دواليك.

من حق المتدينين نشر أديانهم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ومن حق الملحد نشر أفكاره اللادينية، بالأسلوب ذاته.

ومثلما يحق للمتدين المطالبة بتدخل رجال الدين في السياسة والحكم، فإن من حق العلماني والملحد المطالبة بمنعهم من ذلك.

للتأكد من صحة هذا الكلام، يمكن متابعة مئات الفيديوهات التهكمية والازدرائية من الطرفين، والتي لم ولن تنتج إلا المزيد من الحقد والكراهية والرغبة في الإلغاء والقمع بشتى الوسائل التي نهى الدين والأخلاق والقانون عنها.

بينما لو اقتصر الأمر على نشر الأفكار المدعمة بالحجج والأدلة العقلية لتُرك الأمر للطرفين أن يزينا الأمور ويفكرا بطريقة علمية عقلية منهجية ويترك لهما الخيار في اعتقاد ما يشاؤون.

ولا بأس في عقد المناظرات الهادئة بين الطرفين، دون صراخ وتعصيب وضرب المخالف بالحذاء.

لأن الطرفين يلبسان الأحذية ويملكان اللسان الطويل والأعصاب المتوفزة.

****

لماذا الإسلام بالذات؟

لماذا توجه إلى الإسلام تحديدا سهام النقد ومعاول الهدم؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من حصر المنتقدين للإسلام لمعرفة دوافعهم حتى لا يكون الجواب عاما.

أولا: العلمانيون، وهم ليسوا ملحدين، ولكنهم يطالبون بفصل الدين عن السياسة أو بالأصح، منع رجال الدين من التدخل في السياسة، وبخضوع جميع شرائح المجتمع على اختلاف توجهاتها الدينية والفكرية إلى قانون مدني عادل يحترمها جميعا. وهذا ما يرفضه الدين الإسلامي.

ثانيا: الملحدون، وهم ينتقدون الأديان السماوية كافة، ولكنهم يركزون على الإسلام لأنه يحاربهم، ويسخر منهم، وبما أنه.يعتبر نفسه الدين الخاتم المهيمن على الاديان والفلسفات السابقة واللاحقة، وهو الحق الوحيد الذي يجب أن يسود العالم، إذن ففي نقده وهدمه هدم لباقي الأديان.

ثالثا: منتقدون متدينون من غير المسلمين، وهؤلاء يعترضون على الإسلام للأسباب التالية:

ـ الإسلام يعتبر نفسه الدين الصحيح الخاتم والاوحد ويعتبر الأديان السابقة مشركة وكافرة ومحرفة غير معترف بها، ولا خلاص لأتباعها في الآخرة. إذن فبما أنه يكفرهم ويسخر منهم، فيجب أن يدافعوا عن أديانهم، ويهدموا الإسلام، الذي لا يعترفون به أصلا.

- الإسلام دين ودولة، اي أن الدول يجب أن تحكم بما أنزل الله من تشريعات ومبادئ، حتى لو كانت تضم طوائف غير إسلامية.

- المجتمع المسلم اذا كان حاكمه مدنيا يخضع لسلطتين سلطة القانون المدني وسلطة رجال الدين المسلمين، الذين يتدخلون في حياة المسلمين وغير المسلمين في المجتمع.

- الدين الإسلامي يعتبر الجهاد ذروة سنامه وهو ينقسم الى نوعين جهاد الدفع وهو مبرر طبعا، وجهاد الطلب إذ يجب محاربة الدول التي تعادي المسلمين وتقف ضد نشر الدعوة الإسلامية.

- رجال الدين المسلمون يدافعون بشراسة عن حديث يعتبرونه صحيحا وهو أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله....) مع أن في القرآن الكريم أكثر من مئة آية تعارض هذا الحديث وتسمح للناس باختيار معتقدهم وحتى كفرهم (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر).

- يدافع رجال الدين عن قتل المرتد بنصوص حديثية وفقهية، علما بأنه لا وجود لنص قرآني بهذا الخصوص.

- الدين الإسلامي يسخر ويهزأ بمعتقدات غير المسلمين فضلا عن تكفيرهم كما سبق.(اولئك كالأنعام بل هم أضل).

- لأن بعض النماذج التي حكمت باسم الإسلام لم تقدم صورة متسامحة مقنعة عصرية عن الإسلام (طالبان في افغانستان، وتنظيم الدولة الإسلامية في شمال العراق).

ـ بعض حركات الإسلام السياسي استخدمت القوة والعنف في العالم بشكل مرعب لا يتماشى مع شرعة حقوق الإنسان ولا مع النصوص الإسلامية الداعية إلى الرفق والتسامح.

ـ لأن الإسلام جامد في نصوصه الفقهية الثابتة الراسخة ولم يتم تجديد الخطاب الديني بما يلائم العصر.

ـ لأن السيرة النبوية وتاريخ المسلمين حسب مصادرهم، لا يقدم صورة سمحة عن الإسلام إذ قتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين وقامت حربان بين الصحابة في عهد الخليفة علي بن ابي طالب. والحروب الدموية بين الأمويين ومخالفيهم، وبين العباسيين والامويين. وبين العباسيين بعضهم مع بعض، وكثرت المؤامرات والدسائس والانقلابات الخ.. وبعضها حمل صبغة دينية، كفتنة خلق القرآن ايام المأمون.

ـ تاريخ المسلمين حافل بإقصاء المخالفين من المسلمين انفسهم كملاحقة الشيعة وأئمتهم بالقتل والتشريد، وملاحقة المتصوفة وأصحاب العقائد الباطنية كالدروز وإخوان الصفا والإسماعيليين والعلويين الخ..

ـ في نصوص القرآن قصص وأخبار يعتبرها البعض من غير المسلمين خرافية اسطورية مخالفة للعقل والمنطق كمعجزات الانبياء.

رابعا: مرتدون عن الإسلام نحو أديان أخرى او نحو الإلحاد. وهؤلاء ينتقدون الإسلام لأنهم خرجوا منه لأسباب متنوعة، ويعرفونه، لذا يبررون تركه مركزين على الأسباب التي جعلتهم يتركونه، وهي غالبا نفس الاسباب التي يحتج بها غير المسلمين. وينتقدونه لأنهم

يريدون إقناع أنفسهم بصحة سلوكهم واختيارهم أمام ذويهم ومجتمعهم.

ثالثا: مسلمون غير مرتدين وهؤلاء يعتبرون أنفسهم متنورين يرغبون في تنقية الدين مما علق به من شوائب سبق ذكرها أعلاه. عدنان ابراهيم والكيالي، وبعضهم حاول تفسير القرآن تفسيرا عصريا، ورفض غالبية السنة القولية، واعترف بالأحاديث ذات البعد الأخلاقي التربوي فقط. ورفض والسيرة القائمة على المرويات الحديثية.(محمد شحرور).

ـ القرآنيون الذين يرفضون السنة والسيرة ولا يؤمنون إلا بالقرآن الكريم.

ـ العرفاء وهم ينتقدون الاديان السماوية والوضعية والفلسفات اللاهوتية ولهم نظرتهم الخاصة إلى الله والكون والوحي والرسل والكتب السماوية والعبادات الخ..

وقد يقال غير ما تقدم ذكره.

****

كذاب (جنتل)

كذاب جذاب لطيف !!!!

وهل يجتمع الضدان اللطف والكذب ؟

في زمن العجائب كل شيء يجوز.

إنه زمن الكذب بامتياز.

سرد الأمثلة سيوقع القارئ في الملل.

لك أن تنظر حولك بدءا من نفسك فستجد أطنان الكذب تنهال على سمعك وحواسك كلها.

والكذب أنواع وكلها صارت حلالا.يكفي أن ترفق الكذبة بعذر مفضوح أو بسمة دبلوماسية صفراء،أو حتى هههههههه مكتوبة حتى (تجمطها) وتقبلها على مضض وأنت تغلي وتفور وتلعن الشيطان حتى لا تسب وتشقّع،ثم تجبر لسانك أو إصبعك على رد مهذب يليق بك وبأخلاقك لا بالكذاب الأشِر.

كل كذاب يحمل سلة أعذار جاهزة غب الطلب، غنية بالتنوع، ولكن الكذابين موحدون حول عذر مشترك: مشغول.

فتروح تلوم نفسك على إحراجه منذ البداية، وقد تشتم ذاتك قبل أن تلومها: لماذا اهتممت به أصلا، ورفعته فوق ما يستحق من منزلة؟

يمكنني أن أتنزه وحدي وأصحب العصافير والنمل والصراصير عند العين.

وعند العين تراه بشحمه ولحمه وكذبه مع أحدهم أو إحداهن،فترجع مكسور الخاطر موجوع الشعور على وقع قهقهات الصراصير.

لا تلمه بل نفسك لُم.

ممل أنت لا تطاق، مواضيعك مطروقة ونكاتك محروقة ومنشوراتك مسروقة، فأي قاسم مشترك بينك وبينه؟

أشغل نفسك يا أخي كما هو، وكن اجتماعيا أو ناشطا سياسيا أو شاعرا جوالا أو شيطان الرجيم،المهم حلّ عنه، وابنِ عالمك الخاص كما هو بناه.

عليك أن تصدق أنه صاحب مشاغل لا تعد ولا تحصى وأنه لا يجد غير أربع ساعات لنوم قلق.

مشغول غصبا عنك وعن لحية أبيك، حتى لو تابعته يتنطط كالقرد هنا وهناك بين المنشورات الفيسبوكية ناشرا ومعلقا، صدّقت أو ستين عمرك ما تصدّق فهو مشغول ولكن بسواك.

من أنت حتى تقتحم عالمه الوردي الخاص وتحشر مواضيعك التافهة في أمّ فلسفته؟

أمامك حل واحد أن تكذب مثله ولست بحاجة إلى حبل قصير لأن الكذب لم يعد بحاجة إلى حبل، فقد تماهى بالبشر وصار أنت وأنا وهو وهم، وكلنا نبتسم ونتنهد حين ننجح في التملص والتخلص من (الآخر الذي هو الجحيم) وننجو بأنفسنا من مشاريعه ومواضيعه ومن رؤية كشرته غير المبررة.

هكذا ضغطتنا المشاغلُ حتى غيّرت منا القسمات، فصرنا دبلوماسيين محترفين تنطبق علينا أغنية وديع الصافي

(حلوة وكذابة) ويصح فينا الوصف بالضدين (الكذاب اللطيف).

****

تم بحمد اللّه.